في الأدب المصري القديم

أحمد يوسف

الكتاب: في الأدب المصري القديم

الكاتب: أحمد يوسف

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

يوسف، أحمد

في الأدب المصري القديم / أحمد يوسف

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٦٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٠ – ٦٥٩ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢٨٣٤٤ / ٢٠٢٢

في الأدب المصري القديم

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تصدير

لا يزال أكثرنا تشغله آثار مصر القديمة من أهرامات ومعابد، ومسلات وتماثيل، وصور ومناظر شيقة على جدران المعابد والمقابر، عن التفكير في آدابها، بل منا ما لا يزال يدهش إن سمع أن مما خلفته مصر من آثار أدبية ما لا يقتصر على النصوص التاريخية والدينية، وإنما يشمل كذلك أعمالاً أدبية جليلة. وما من ريب في أنه يزداد دهشاً إذا علم أننا إن استبعدنا تلك النصوص مما وصل إلينا من آداب المصريين لتبقى بعد ذلك ما يكفي للدلالة على أنهم ضربوا بسهم وافر في الأدب، وأنهم لم يكونوا شعباً متديناً فحسب، وإنما كانوا كذلك شعباً أديباً، كما كانوا شعباً فنياً.

ويدل ما حفظ لنا من آدابهم على أنهم عالجوا نواحي مختلفة في الأدب؛ فقد كتبوا في المواعظ وآداب السلوك وما ينبغي التخلق به في الظروف المختلفة. وضمنوها الأمثال والحكم الخالدة على الزمان. وأنشأوا المقالات في الإصلاح السياسي لعلاج ما تفشى من مساوئ وما حل بالمجتمع من نكبات؛ وصنفوا الرسائل في المناسبات والأغراض المختلفة، في التهاني والتواصي، والتمنيات والتراجي، والتفاضل والمفاخرة، وفي هجاء الحرف إلا حرفة الكاتب، وغير ذلك من مطالب الحياة ومقاصدها. وحاكوا القصص القصيرة المختلفة، حتى ليعتقد أن مصر هو موطن القصة القصيرة، وأن المصريين أول من أنتجها لذاتها حباً في روايتها، وتزجية

للوقت. وصاغوا الأناشيد يرتلونها لمعبوداتهم وملوكهم، ويمجدون بها بعض مظاهر الكون والطبيعة وخاصة الشمس والنيل، وصنعوا الأغاني يرقصون عليها، ويتغنون بها لأحبابهم، بل وزادوا على ذلك كله بأن ألفوا التمثيليات الدينية يمثلونها في أعيادهم لآلهتهم وملوكهم، كما لم يفتهم أن يكتبوا في مسرات صيد السمك والطير.

ومع ذلك فما من شك في أنه قد ضاع من الأدب المصري الكثير طوال القرون الماضية، ويدل على ذلك أنه لم يحفظ لنا شيء تقريباً من أدب الأسرة الثامنة عشرة، التي ازدهرت فيها الحياة وبلغت فيها الدولة غاية اتساعها، وما بقي من قصة إله اليم الذي لا يشبع ليشير إلى ما ضاع من أدب جليل. يضاف إلى هذا أن من النصوص ما كان يمحي من على البرديات لتكتب مكانه نصوص جديدة، ومن هذا القبيل قصة الراعي الذي رأى في الماء امرأة من غير البشر حاولت فيما يبدو أن توقعه في شراك حبها، بيد أنه لم يبق منها للأسف غير جزء صغير، إذ محي أولها وآخرها.

وكانت البرديات المخطوطة منذ الحملة الفرنسية على مصر تشرى من الأهالي وما من شك في أنهم حصلوا عليها من بعض القبور، أو مما كان يحيط ببعض المعابد من كيمان أثرية أثناء إزالتها، أو من التلال المتخلفة عن المدن القديمة عند الحصول على أتربتها لتسميد الأراضي الزراعية بها، ومن أمثلة ذلك بردية هرست الطبية التي عثر عليها السباخون عام ١٩٠١ في "كوم البلاص". ولنا أن نتصور ما يمكن أن يكون قد تلف أو ضاع من برديات أثناء هذا كله.

وكان من الأهالي من إذا وقعت في أيدهم مجموعات من البردى قسموها فيما بينهم مما أدى إلى ذهاب المجموعة الواحدة إلى أماكن مختلفة؛ بل لقد كان منهم من يمزق البردية الواحدة إلى أكثر من جزء، فينتهي بها الأمر إلى أن تكون في أكثر من مكان. ولم يكن الشارون يعنون عادة بالسؤال عن المكان الذي عثر عليها فيه، ولذلك فإنه لا يعرف مصدر أغلبها. ومن البرديات الهامة التي لا يعرف مكان العثور عليها ما في متحف برلين من برديات قصة سنوهي، وحوار كاره الحياة مع روحه، وقصة الأخوين. على أن من البرديات ما يمكن استنتاج مكانها الأصلي من نصوصها، ومن ذلك بردية أناشيد التاج من أواخر الدولة الوسطى، إذ تدل نصوصها على أنها من "كيمان فارس" (كروكو ديلوبولس)، التي كانت عاصمة الفيوم.

على أية حال، يظن أن مصدر أكثر برديات ما قبل العهد البطلمي في مصر إنما هو مدينة الموتى غربي مدينة الأقصر؛ وأنه عثر عليها في بيوت الكهنة والموظفين والصناع والعمال، أو في بعض المقابر أو في مخابئ كانت أخفيت فيها في بعض فترات الاضطراب الداخلي. وإنه ليغلب على الظن أيضاً أن البرديات التي عثر عليها منذ وقت قصير والتي تحمل اسم "تشتربيتي" إنما ترجع إلى دير المدينة غربي الأقصر. ومع هذا فمن البرديات ما عثر عليه نتيجة حفر وتنقيب علمي، وإن كانت قليلة، ومنها ما كشف عنه في بيوت مدينة هرم سنوسرت الثاني في "اللاهون" عند مدخل الفيوم، وبعضها يتضمن أناشيد لسنوسرت الثالث وأسطورة عن حورس وست.

ولا تقتصر الآثار الأدبية المصرية على قراطيس البردي وحدها، وإنما منها ما كان يكتب على ألواح من خشب أو لخاف من فخار أو حجر جيري. وهو في أغلب الأحيان قطع مختارة من أدب الدولة الوسطى نسخها تلاميذ المدارس في عهد الدولة الحديثة، عندما اقتضت ظروفها السياسية الجديدة الاستزادة من عدد الكتاب فنشطت المدارس، وأخذ التلاميذ يتعلمون القطع الأدبية الممتازة، ومن أمثلة ذلك وصية أمنمحات، وشكوى خع خبر سنب، وتنبؤات نفررحو، وما يعرف بلوح كرنارفون الذي حفظ لنا من قصة حرب الجهاد ضد الهكسوس أولها، وأكثر اللخاف عثر عليه في مدينة الموتى غربي الأقصر، وخاصة في بيوت الصناع في دير المدينة وفي المعبد الجنازي لرمسيس الثاني المسمى بالرمسيوم.

يتضح من ذلك كله أن أكثر ما لدينا من آثار أدبية من مصر القديمة إنما وصل إلينا صدفة، ولذلك لا يمكن أن يكون هو كل ما كان للمصريين من أدب، كما أنه لا ينتظر أن يعطي صورة كاملة عن الأدب المصري. ولا يمكن كذلك أن يمثل جميع النواحي التي يمكن أن يكون الأدب المصري قد عالجها، أو أن يكون أمثلة مختارة منه، فقد يكون فيما ضاع إلى الأبد أو فيما لا تزال أرض مصر تخفيه مما لم يصل إلينا بعد، آثار أدبية أخرى لها قدرها وشأنها. يدل على ذلك مثلاً أنه كان للملك أمنحوتب الثالث كتاب يسمى "كتاب الجميزة والنخلة" ضاع أو لم يهتد إليه بعد، وإن كانت قد بقيت البطاقة الدالة عليه، وفي هذا وغيره ما يشير من ناحية أخرى إلى اهتمام ملوك مصر بكتب الأدب وحرصهم على اقتنائها. ومع ذلك ففيما

لدينا من الأدب المصري ما يمكن أن يعطي صورة حية متعددة الجوانب، تفوق في قيمتها وعددها ما خلفته الأمم التي عاصرت المصريين من آثار أدبية.

وقبل أن نتعرض للكلام عن قيمة الأدب المصري يحسن أن نتعرف متى بدأ المصريون يصطنعون الأدب؟ إن أقدم ما حفظ لنا مما كتب من آدابهم إنما هو من عهد الدولة القديمة، فقد بقي لنا من ذلك العهد نصوص دينية، هي ما تعرف بمتون الأهرام، ثم تراجم مختصرة لبعض الأشخاص. على أنه ينسب إلى الدولة القديمة أيضاً قصة خلق الإله بتاح للعالم، ومواعظ بتاح حتب وكاجمني، وقصص السحرة، وبرديتا أدون سمث وايبرز الطبيتان، وإن كانت جميعها وصلت إلينا مكتوبة بخط من الدولة الوسطى أو الحديثة أو العهد الأثيوبي. ويعتقد أيضاً أن الروايات التي كانت تمثل في الأعياد إنما ترجع في جوهرها إلى الدولة القديمة، كتمثيلية عيد التتويج المكتوبة على بردية من أواخر الدولة الوسطى. وهنا يصح التساؤل عما إذا كانت كل هذه الآثار من عمل الدولة القديمة حقاً، وعما إذا كانت عصور ما قبل الأسرات خلوا من كل أثر أدبي.

ذهب بعض الباحثين إلى أن من متون الأهرام ومن القصص والأساطير ما يمكن أن يرجع إلى عصور ما قبل الأسرات، بيد أن منهم من ذهب أخيراً إلى أن الأدب المصري لم ينشأ إلا في العد التاريخي، أي في عهد الأسرات، معتمداً في ذلك على أن الكتابة الهيروغليفية في بداية الأسرات كانت لا تزال في مراحل تطورها، وأن كتابات ذلك العهد تكاد

تقتصر على الأسماء والألقاب، وأن المصريين إذ ذاك كانوا يسجلون الأحداث متفرقة في ألفاظ قليلة، إذ لم يكونوا يعرفون بعد كيف يؤلفون بينها في رواية متصلة الحلقات وهو أساس القصص والأخبار، وأنهم لم يبدأوا ذلك إلا في أواخر الأسرة الثانية.

ولكن ألا يكون أدب إلا أن يكون مكتوباً؟ لقد بدا المصريون حياتهم جماعات متفرقة، ومن ثم أخذوا يكافحون قروناً وأجيالاً طويلة، حافلة أيامهم بالأحداث العظيمة، ومتدرجين من ثقافة إلى أخرى، حتى تم لهم في مطلع تاريخهم توحيد البلاد في ظل حكومة رشيدة قوية، فهل يمكن أن نتصور أن يتم ذلك كله دون أن يحيكوا القصص والأساطير عن أبطالهم ومعبوداتهم؛ يروونها جيلاً عن جيل، وذلك لأنهم لم يكونوا قد اهتدوا إلى الكتابة بعد؟ وهل يمكن أن نتخيل أنهم بعد أن قضوا الأجيال العديدة خاملين عن اصطناع القصص والأساطير انتفضوا فجأة فاصطنعوا الأساطير العديدة التي تشير إليها في اقتضاب متون الأهرام، وذلك بعد أن وقفوا إلى الكتابة؟

إننا بهذا ننسى أن الكتابة حدث متأخر في تاريخ الإنسانية، وأن الإنسانية لا تنتظر حتى تهتدي إلى الكتابة لتتخيل وتفكر وتفلسف، كما ننسى ما كان للرواية والقصص من شأن في الأزمنة الأولى.

لقد كان للكتابة شأنها؛ ولكن ذلك لم يكن يعدو في أول نشأتها التسجيل والنشر، أما التصور والتخيل، والخلق والابتداع، والرواية والحديث فلا علاقة أصيلة لها بها. لذلك لابد وأن يكون المصريون في

عصور ما قبل التاريخ قد حاكوا من القصص والأساطير ما كانوا يرونه جيلاً لجيل قبل ان يهتدوا إلى الكتابة. وإذا كان لم يحفظ لنا من هذه الأساطير شيء في بداية عهدهم بالكتابة، فذلك لأن هذه لم تكن قد استكملت بعد أصولها لتستطيع تسجيل مثل هذه الأساطير، في وقت كان لا يزال للرواية سلطانها؛ ولأن المصريين شغلوا بها إذ ذاك في تسجيل مطالب الحكومة المتحدة بقدر ما وسعته معرفتهم بها.

وهكذا يكون الأدب المصري نتاج فترة طويلة استغرقت قروناً وأجيالاً تزيد كثيراً على ثلاثة آلاف عام، اختلفت فيها طرزه وأساليبه من عهد إلى عهد. وهو يتميز في مجموعه ببساطته ووضوحه، وواقعيته وقصر جمله وسداده وإحكامه، وهدوئه واتزانه، وأنه أدب هادف عملي على صلة بالدين لا يرمي إلى التسلية الرخيصة. وفي هذا كله يتردد صدى البيئة التي نشأ فيها وطبيعة منشئيه، إذ يصور طبيعة مصر؛ وعادات المجتمع المصري وأخلاقه على اختلاف طبقاته، وذلك في صورة حية صادقة، وبتفاصيل شيقة تكشف عن الروح المصرية؛ وما تتميز به من دعابة وفكاهة. وفيه تتراءى كذلك أحداث كل عصر، وتتمثل صفاته وأفكاره بما لا يدع مجالاً للشك في أنه في ظاهره وجوهره مصري النشأة والأصل، لم يؤثر فيه عنصر أجنبي دخيل عليه، فأخيلته وأفكاره، وأساليبه ومعانيه تنم على تصورات المصريين وعقائدهم، وتشف عن أحاسيسهم ومشاعرهم، وتنبئ عن تجاربهم وأحداثهم وتحكي عن مخاوفهم وآمالهم، على نحو ما تفعل ذلك فنونهم وصناعاتهم.

فهناك تراجم الأشخاص في مقابرهم من الدولة القديمة ما زالت تتطور حتى غدت تصور حياة صاحبها، وتبرز في فخر واعتزاز أهم أخباره، وحديث الملك له، أو ما كتبه إليه من رسائل. ومن أهم ما حفظ منها تراجم أوني وحرخوف وبيي نخت وسابني. كما أن مواعظ بتاح حتب وكاجمني إنما تترجم عن أفكار ذلك العهد الفني، فهي توحي بالثقة بالنفس وحب التقدم إذ "لا حد للفن، وما من فنان بلغ غاية مواهبه"، وذلك ما يتفق أحسن ما يكون وروح الخلق والإبداع التي سادت عصر بناة الأهرام.

وها هي القطع الأدبية من عهد الفوضى والاضطراب فيما بين الدولتين القديمة والوسطى تصور في أصدق صورة ما انتاب المجتمع المصري إذ ذاك من نكبات قلبت أوضاعه ظهراً على عقب بعد ذلك الاستقرار المكين الذي كان في الدولة القديمة، مما أشاع التذمر واليأس بين المفكرين فانقسموا طائفتين؛ طائفة تؤثر العاجلة فتدعو إلى انتهاب اللذات، وأخرى تؤثر الحياة الفاضلة فتنادي بأسباب الإصلاح. وقد اختار الكتاب على اختلافهم أطراً متعددة صاغوا فيها أفكارهم، ووصفوا فيها حالة البلاد، في صورة حية قوية بما لا يدع مجالاً للشك في أن هذه الآثار إنما هي وليدة عصرها؛ تحمل طابعه، وتنطق بلسانه، وتفكر بوحيه في قوة وجلاء.

فهذا هو إبوور يتقدم للملك العجوز المستكين لحياة الدعة في قصره، يستمع إلى أكاذيب رجال البلاط وتمويهاتهم، ليعلن إليه الحقيقة سافرة، ويصف له ما يخيم على البلاد من بؤس وما حل بها من نكبات. وما ساد فيها من فوضى أطاحت بسلطة الحكومة وهيبتها، ويدعوه إلى

محاربة أعداء الدولة وإلى العودة إلى عبادة الآلهة، ومن ثم يبشر بعهد جديد سعيد.

وها هي شكاوي الفلاح الفصيح صيغت في إطار قصة أجاد فيها مؤلفها وصف ما تعرض له بطلها من اضطهاد وسوء معاملة، وبلغ بالمحاجة فيها غايتها من الدقة الفنية، ثم هو لا يلبث أن يسمو بها على الغرض الشخصي فيشيد بالعدل وإحقاق الحق، فتغدو دعوة بليغة للعدالة وتحقيق مطالب الإصلاح في المجتمع المصري.

وها هو رجل كره الحياة والعالم الذي يعيش فيه ما يسوده من مساوئ ونقائص. فيروح يصف شوقه إلى الموت. ويظل يغري روحه بالبقاء إلى جانبه إذا تخلص من الحياة بالموت. إلا أنها تأبى ذلك لأنها تخشى أن يسوء حالها في الآخرة مع رجل فقير مثله لن يكنه قبر، ولن يقدم إليه أحد القربان. ومن ثم تدعوه إلى أن ينسى الأحزان ويتبع اليوم السعيد. ولكنه يعود فيصف ما تنوء به البلاد من شرور، ولا يلبث أن يمدح الموت في إطناب كثير.

وفي الجانب السياسي من وصايا الملك خيتي (؟) نراه ينصح ابنه الملك مريكارع بأن يقتل كل ثائر مدع يجمع من حوله الأنصار يعظمونه. وأن يمحو اسمه وذكراه وحزبه الذي يعزه. ولكنه لا يلبث أن يوصيه بأن يكون طيباً مسالماً. وأن يخلد ذكراه بحب الناس له. وأن يعلي من مركز مستشاريه ليعلموا وفق أوامره. لأن الثرى لا يتحزب، وهو يعظه بأن يعمل الحق طالما هو باق على الأرض. وأن يسكن من روع الباكي ثم يحذره من

أن يعذب أرملة أو يطرد أحداً من ملك أبيه أو أن يعاقب ظلماً. فالإنسان باق بعد الموت وسوف تكوم بجانبه أعماله.

وترجع إلى ذلك العهد أيضاً أغنية قصيرة جميلة سجلت فيما بعد على جدران بعض المقابر. وهي تصور فناء كل شيء على الأرض وتدعو إلى الاستمتاع بالحياة وترك التفكير في الموت. فإن الشكوى لا تنقذ أحداً من عالم الموت وما من أحد يأخذ متاعه معه أو يعود ممن رحلوا.

ومن الدولة الوسطى تسجل وصية أمنمحات الأول لابنه سنوسرت الأول، سواء كان هو الذي دبجها حقاً أو أن كاتباً ابتدعها على لسانه، ما يصاحب عادة قيام أسرة حاكمة إثر أسرة أخرى من عداوة مكبوتة، تتحين الفرص لتنتقم، أو حسد مضمر يحاول أن يحقق أطماعه. وإننا لنلمس فيها مرارة الألم في نفس المصلح الذي نهض بالبلاد ورد عنها الأعداء وأحال ضعفها قوة، فلم يلق إلا النكران وسوء الجزاء.

وقصة سنوهي تشير في بدايتها من طرف خفي إلى حادث داخلي إثر وفاة الملك أمنمحات الأول، وإن كنا لا نستطيع معرفته على حقيقته؛ وهي بعد ذلك تصور في صورة شائقة فراره إلى فلسطين وما لاقاه في الصحراء من نصب وعطش وجوع. وتصف حياته مع البدو وحسن لقاء أميرهم له وزواجه من كبرى بناته، وتحدى أحد حاسديه له بدعوته للمبارزة واستعداده لها وانتصاره عليه. ثم حنينه إلى مصر وعفو الملك عنه، ومقابلته له وخشيته منه، وتعجب الملكة والأميرات من هيئته. وهي في هذا كله تصف المشاعر والأحاسيس المختلفة، وتبرز حياة البدو لأول مرة في تاريخ

الإنسان. وفضلاً عن ذلك فإننا نلمس فيها اعتزاز سنوهي بوطنه، وإحساسه بعظمته وسبقه على سائر الأقطار، ولم يستطع ما وجده في غربته من حسن المأوى والرعاية أن يخفف من حنينه وشوقه إليه، وتمكسه بعاداته وتقاليده، وما زال حتى أتيحت له فرصة العودة فلباها مسرعاً تاركاً زوجه وأولاده وما ملكت يداه. فإذا بلغ قصره الملك واحتوته قاعته الكبرى، حدثه الملك في لطف بما أزال عنه خوفه، وحل عقدة لسانه.

وإذا كانت قصة سنوهي تصف وعثاء السفر في الصحراء، فإن قصة الملاح الذي غرقت سفينته تصور ركوب البحر وعوائده، والحنين إلى الوطن والأولاد. وهي وإن كانت قصة خيالية إلا أنها تعتمد على ما خبره المصريون من زمن طويل في السفر في البحار، وما كانوا يجدونه فيه من مشاعر وأحاسيس.

ومن الدولة الحديثة تشيد أنشودة أخناتون بجمال الطبيعة، وتصور آلاء الشمس بما يعبر أحسن ما يكون عن مشاعر صاحبها وحبه للطبيعة في صورها المختلفة. وتصور قصة الأخوين في بدايتها أعمال الفلاح المصري في صورة صادقة شيقة من حرث وزرع وحصد ورعاية ماشية، وهي كلها أعمال تصورها المناظر على جدران المقابر، وتعبر عنها النصوص المكتوبة إلى جانبها في لغة تشبه لغة القصة.

وفي رحلة ونامون من أواخر الدولة الحديثة من الصدق والواقعية ما يجعلها أشبه بتقرير موظف أوفد لجلب الخشب من سوريا ليصنع به زورق أمون المقدس، حتى إنها لتعتبر مستنداً تاريخياً هاماً يصور حالة مصر

الداخلية وما أصاب سلطنها خارج حدودها من ضعف ووهن. وهي تقص رحلته من طيبة إلى جبيل، وما تعرض له فيها من مخاطر مختلفة قابلها برباطة جأش. ومما له مغزاه أنه تتراءى في هذه القصة وفي غيرها من أدب الدولة الحديثة قصص الاستيلاء على يافا، والأخوين، والأمير المحتوم، والرسالة التهكمية التي كتبها حوري إلى أمنموبي، ظروف مصر الجديدة واتصالها بسوريا وغيرها من الأقطار الشرقية، وما أدى إليه ذلك من اتساع آفاق النظر والتفكير.

ومواعظ آني وإن كانت تترسم خطي المواعظ المصرية القديمة، إلا أنها تنم على روح الدولة الحديثة. فهي تنصح بالتواضع والرضاء والصمت والخشوع، والتروي والاعتراف بالجميل. ومن وصاياه "أدع بقلب محب، ولفظ خفي، ليستجيب الله ما تدعو إليه، ويصغي إلى ما تقول".

وقد خلفت الدولة الحديثة من الأغاني ما يتميز بتنوعه وجدته مما كان يغنيه الفلاحون والرعاة والعمال وكذلك المغنون في حفلات الشراب. على أن أهمها جميعاً أغاني الحب لجمال ما تفيض به من عاطفة سامية مهذبة، وما تصوره من مناظر الطبيعة الجميلة، بما فيها من شجر وزهر، وماء وطير.

عدا هذا كله لا تخلو بعض القصص المصرية من أشياء خارقة للطبيعة ومن أعمال السحر بما يتفق وعقائد المصريين، ففيها من السحرة من يصطنع تمساحاً صغيراً من الشمع، فإذا تليت عليه تعويذة استحال إلى تمساح كبير يلتهم رجلاً، أو من يشق بحيرة فيرفع نصف مائها فوق النصف الآخر ليلتقط حلية من الفيروز سقطت فيها، أو من يلحم رأساً انفصلت

عن جسدها: وفيها كذلك من الأشخاص من يتحول حيواناً أو نباتاً، ومن يسحر قلبه ويستخرجه من جوفه دون أن يموت، كما أن فيها من الحيوان ما يتكلم.

ومن القصص ما يتضمن كذلك أسماء بعض ملوك مصر أمثال سنفرو وخوفو وتحوتمس بما كان يكسبها حياة تزيد في أهميتها وتضفي عليها مسحة من حق لما تثيره هذه الأسماء الشهيرة في أذهان القراء والسامعين من ذكرى أصحابها الأمجاد، الذين كانت أخبارهم تتواتر من جيل إلى جيل. ولم يكن هذا يختلف كثيراً عن تضمين تراجم المصريين أسماء الملوك الذين عاشوا في عهودهم وفي بعض الأحيان رسالة من ملك، وما كان أفضلها من وسيلة لإبراز أهمية الشخص وما ناله من شرف رفيع.

خلاصة هذا كله أن ما حفظ من آداب المصريين إنما كان من إنشائهم، ووحي ظروفهم وملابساتهم، وأنه يسجل أفكارهم ووصاياهم، وينطق عن عاداتهم وأحوالهم. ولنا أن نسأل بعد ذلك عما إذا كان له من الصفات الأدبية ما يرفع من شأنه ويسمى بقدره.

لا جدال في أن لكل كلمة مسموعة أو مقروءة صوتاً ملفوظاً له وقعه في الأذن، ومعنى ملحوظاً له تأثيره في النفس. وليس يخفي أن القيمة الجمالية لأي أدب إنما تتوقف على جرس عبارته ومعناها في وقت واحد وما يمكن أن تثيره في نفس السامع أو القارئ من معاني وأحاسيس. وصوت كل لفظ إنما يعتمد على ما فيه من حروف وحركات. على أن الكلام باللغة المصرية قد بطل منذ قرون عدة، وبذلك لم تعد ألفاظها تثير

في نفوسنا الأخيلة والأحاسيس التي كانت تثيرها في نفس المصري القديم، بل لا تزال صيغ الكثير من هذه الألفاظ ومعانيها الصحيحة مغلقة علينا، لا نكاد نعرفها إلا غامضة مبهمة، وهو ما يرجع إليه اختلاف ترجمة الأدب المصري اختلافاً غير يسير. يضاف إلى هذا أن الحركات لم تكن ترسم على الحروف، وبذلك لا يعرف نوعها أو طبيعتها، بل من الحروف نفسها ما لا يزال يشكل في صحة نطقه، ولذلك كله فإنه من غير المستطاع إدراك مما في الشعر والنثر من وزن ونغم إدراكاً صحيحاً، ولا ينبغي أن يفوتنا أيضاً أن أكثر الأدب المصري إنما جاءنا منسوخاً بأيد غير عليمة، ولذلك فهو حافل بالأخطاء الكثيرة. لهذا فما من أحد مهما بلغ علمه في الوقت الحاضر باللغة المصرية يستطيع أن يتذوق ما في الأدب المصري من جمال بحيث يزعم أن أهل لتقدير الأدب المصري حق قدره والحكم عليه حكماً صحيحاً.

ومع ذلك فما من شك في أن المصريين كانوا يعلون من شأن الكلام البليغ الجميل؛ والأدلة على ذلك كثيرة، فقد كانت الأقوال والحكم المأثورة هي التي رشحت كاجمني لأن يكون مشرفاً على العاصمة ووزيراً، وسمي الحكيم بتاح حتب مواعظه "المقولات الجميلة" ووصفها بأنها "لتعليم من لا يعلم العلم والكلام الجميل"؛ ومن أمثاله فيها: "الكلام الجميل أخفى من الزمرد". وجاء على لسان سنفرو في تنبؤات نفررحو "آتوني بمن يحدثني بكلام جميل وأحاديث مختارة ليبتهج قلبي بسماعها". وفي وصايا الملك خيتي الأول (؟) لابنه الملك مريكارع "كن فناناً في الكلام لتكون قوياً فإن

قوة (الرجل) في لسانه. وإن الكلام لأقوى من أي قتال". ومن أمثال المصريين أيضاً "إن فم الإنسان ينجيه وكلامه يدعو الناس إلى احترامه". وكانوا يصفون الرجل الفصيح بأن "كل ما يخرج من فمه مغموس بالعسل". وعلى ضعف درايتنا باللغة المصرية ونطقها فإننا نشعر مع ذلك بما تتميز به بعض القصص من أسلوب جميل رشيق، هادئ رزين. بل إن من النصوص الدينية والتاريخية والتراجم المسجلة على جدران المعابد والمقابر ما ندرك بأنه يسمو في بعض أجزائه وفصوله إلى مرتبة الأدب الرفيع. وإذا كنا نضيق الآن بما نجده في كثير من النصوص الأدبية من تكرار، فما كان ذلك ليضيق به الإنسان القديم. ولعله كان في الأصل خاصة من خصائص الرواية، كان يستعين به الراوي على تذكر أحداث ما ينشئ أو يروى، كما كان يعين السامع على تذكر ما سبقت روايته ثم عد بعد ذلك من أفانين الكلام.

ومهما يكن من أمر، فليس من ريب في أن شكاوي الفلاح الفصيح تمتاز بفصاحتها وحسن تعبيراتها، وما تتضمنه من أخيلة وتشبيهات، وحكم وأمثال، مما جعل الملك كنص الرواية يستمتع بها فيرجئ إنصاف صاحبها استزادة من بلاغته حتى أكملها من الشكاوي تسعا، وفي استماع الملك لها والاستزادة منها تعظيم من شأن البلاغة. ووصية أمنمحات الأول وإن كانت حافلة بأخطاء النساخين من التلاميذ إلا أنه لا يخفى أسلوبها الرشيق وما فيه من جمال وجلال. وها هي قصة سنوهي التي عدها بعض الباحثين ومشاهير الكتاب العالميين من الأدب العالمي الرفيع، ذلك لأنها "تقص

فيما يقرب من ثلاثمائة وخمسين سطراً حياة حافلة بالمخاطر، وتصور شخصية بمهارة بالغة غاية لكمال. ففيها نرى سنوهي مروعاً، فمحارباً واثقاً بنفسه، فمتوسلاً خاشعاً، ثم مرة أخرى وقد تملكته الرهبة في حضرة ملك مصر. وفيها دعابة وعاطفة، ومبالغة وإطناب أيضاً – ولم لا وقد كانت المبالغة من السمات المصرية الأصيلة". وهكذا كان أدب عهد الانتقال الأول والدولة الوسطى يعني بالفصاحة والبلاغة ودقة التأليف وحسن العرض وجودة الوصف، حتى إن المصريين اعتبروه الأدب المثالي وطفقوا يحتذونه ويترسمون خطاه.

وأنشوطة أخناتون تتميز بعباراتها الحرة الطليقة ولغتها البسيطة، كما تتميز رحلة وتامون بما تشتمل عليه من أحاديث رصينة، ووصف شائق يرسم صوراً حية، ومن ذلك وصف المقابلة مع أمير جبيل وهو جالس في قاعة علوية يتكئ بظهره على شرفة، بينما تتلاطم أمواج البحر السوري من خلفه، وهي بذلك كله تعد من غرر الأدب المصري ولا تقل قيمتها الأدبية عما لقصة سنوهي من قيمة. وأغاني الحب تعتبر من أهم ما ساهم به المصريون في الأدب العالمي، حتى لقد قيل أن "هين" نفسه كان يمكن أن يكتبها، فقد أجيد فيها التعبير عن أحاسيس الحب في لغة عذبة طلية، لا نزال تلتذ بقراءتها للآن، ونطرب بما فيها من وصف وتمجيد للطبيعة. وهكذا يتميز أدب الدولة الحديثة بتعابيره البسيطة وخلوه من كل تنميق وزخرف بلاغي، وحسن قصة للأحداث في أسلوب واضح مستقيم.

وكان الأدب المصري يقرأ ويدرس للشبان في المدارس، وكان التلاميذ

والطلبة ينسخونه لتقويم ألسنتهم وتعليمهم الفصاحة والبلاغة، وإن كثرة ما حفظ من منسوخاتهم منه في عهود مختلفة ليدل على ما كان له من شهرة ويشير إلى مدى تعلق المصريين به. ومما لا يخلو من مغزى ما تدل عليه مقدمة قصة الفلاح الفصيح من أنها قصت للترفيه عن أحد النبلاء وإعادة الثقة إلى نفسه، وبهذا كان من آداب المصريين ما لم يكن الغرض منه خدمة الدين أو السياسة، أو غير ذلك من أغراض، وإنما المتعة الأدبية وحدها، وبذلك كان المصريون أول من كتبوا في الأدب للأدب ذاته. وقد يشرح اهتمام المصريين للأدب وتقديرهم له أنهم جعلوا تحوت إلهاً للكتابة ووصفوه بالحكمة والخبرة وأنزلوه مكانة عليا بين سائر الآلهة.

أضف إلى هذا أنهم ما زالوا بأمحوتب أكبر موظفي الملك زوسر، إلى أن سموا به إلى مصاف الآلهة لا لما أسندوه إليه من براعة في الطب والهندسة فحسب وإنما لبراعته في الأدب أيضاً، وإن كانت لم تحفظ لنا أمثاله وحكمه، ثم هل هناك أدل على تقدير المصريين لرجال الأدب مما جاء في إحدى برديات الأسرة التاسعة عشرة عن مؤلفي الأمثال والحكم من أنهم "لم يشيدوا لأنفسهم أهرامات من معدن أو نصباً من حديد، ولم يتركوا أبناء ورثة ليخلدوا أسماءهم، وإنما خلقوا لهم ورثة مما ألفوه من كتب ومواعظ. إن الكتاب لأنفع من نصب مكتوب وقبر (ثابت). إنهم خلقوا لأنفسهم القبور والأهرامات في قلوب من يذكر أسماءهم، وإن اسماً تتداوله أفواه الناس لنافع في الآخرة، إن الإنسان فان وجثته هباء، وجميع معاصريه يغدون تراباً، ولكن الكتاب هو ذكراه الذي يبقى من فم إلى فم، إنه لأنفع

من بيت مشيد، ومن قبر في الغرب، ومن قصر مدعم، ومن نصب في معبد".

فإذا كان الأدب المصري وتقدير المصريين له على نحو ما وصفنا، فهل ظل حبيساً في موطنه لا يؤثر في غيره من آداب؟ لقد كان لمصر بفلسطين صلات قوية منذ أزمنة بعيدة، يؤيدها ما كشف فيها من آثار مصرية وكانت العلائق وطيدة بينهما كذلك في عهد سليمان في القرن العاشر قبل الميلاد، وهو العهد الذي بدأ يزدهر فيه الأدب العبري، وما من شك في أنه تأثر كثيراً بالأدب المصري، حتى إن من التوراة ما يحملنا قسراً على مقارنته بما يماثله فيه. لقد عرفت مصر أدب الموعظة والحكمة منذ الدولة القديمة على الأقل، وإذن فهو فيها أصيل، وكانت له فيها مكانة مرموقة إلى وقت متأخر من تاريخها القديم. وإننا لنجد صدى هذا الأدب قوياً في أمثال سليمان، بل إننا لنجد في وصايا أمنموبي ما يماثل في أفكاره ومعانيه ما ينسب لهذا النبي الكريم، ففي كل منها تحذير من ظلم الفقير، ومصاحبة سريعي الغضب، ونقل علامات الحقول، والسعي وراء الغنى، كما أن كلا منهما ينصح بآداب السلوك على المائدة. وفي أسفار الأنبياء في العهد القديم ما يشبه وصايا الكتاب وتحذيراتهم من عهد الانتقال الأول في مصر، وإن كان يختلف عنها في غرضها، وسفر أيوب يشبه حديث كاره الحياة مع روحه وبراءات الموتى. وفي مزامير داود ما يشبه كثيراً نشيد أخناتون حتى إنه ليمكن المقابلة بين بعض فقراتها. ويذكرنا الجزء الأول من قصة الأخوين بقصة يوسف وزوجة ذو طيفار في سفر

التكوين، وإن كان يمكن ألا تكون بينهما صلة ما، فموضوعها يمكن أن ينشأ في أي زمن وأي مكان.



إيمحتب .. وزير الملك زوسر رأس الأسرة الثالثة، حكيم رفعته حكمته إلى مضاف الآلهة في عصر البطالمة وسواه الإغريق بمعبودهم اسكلبيوس

ولا يظن أن الأمر كان يختلف عن ذلك بالنسبة لآداب الأمم الأخرى فهناك ما يدل على أن قصص عيسوب وغيرها في القصص الإغريقي وما يعتمد عليها من قصص أوروبي حديث إنما يرجع في جوهره إلى أصول مصرية قديمة، وإن لم يحفظ من القصص المصري على لسان الحيوان والنبات شيء يذكر، غير أنه ما من شك في أنه كان لمصر منها منذ زمن طويل ذخيرة طيبة. علاوة على هذا لقد وجد الأدب الديني المصري والطقوس الدينية والجنازية سبيلها أيضاً في العصور المتأخرة إلى بلاد

الإغريق والرومان، وكان واسطة ذلك الإغريق في مصر. وما من ريب في أن الأدب المصري عامة كان له تأثيره كذلك في الأدب الإغريقي، وإن كان من الصعب ترسم ذلك. ومهما يكن من أمر فإنه مما لا يكاد يتطرق إليه الشك أنه لولا الأدب المصري لما كان الأدب العبري ولا الأدب الإغريقي على نحو ما نعهدهما، وفي الأدب العربي تذكرنا قصة كل من السندباد البحري وعلي بابا، ونور الدين علي وبدر الدين حسن بقصة الملاح الذي غرقت سفينته، وقصة الاستيلاء على يافا وقصة الصدق والكذب في الأدب المصري. ولقصة الأخوين وغيرها ما يشبهها في بعض أجزائها وتفاصيلها في آداب بعض الأمم والبلاد الأخرى ومنها الحبشة والهند وآسيا الصغرى وروسيا والمجر وإيطاليا وألمانيا وفرنسا وغيرها. ومهما يكن من أمرها جميعاً، وما قد يكون بينها من صلات، فإنها في مصر أقدمها جميعاً.

وبعد فإن هذا كتيب في الأدب المصري القديم، لمؤلف شاب حظي من التعليم بنصيب وافر، فقد تخرج في قسم التاريخ في كلية آداب جامعة القاهرة ثم في معهد الآثار المصرية، ولم يقتصر حظه في الدراسة على التعليم الجامعي وحده، وإنما اعتمد أكثر ما اعتمد على دراساته واطلاعه الخاص، فكان حظه منهما أوفى كثيراً مما تلقاه في الجامعة، مما ميزه بحق على سائر أقرانه وإخوانه. وقد أهلته لذلك طبيعته الباحثة الواعية التي لا تكل عن البحث والاستقصاء، والتي لا تكاد تفلت منها شاردة أو واردة وقعت عليها عينة أو طرقت سمعه. وهو فوق ذلك أديب مطبوع، يمتاز بما يكتنزه

من حصيلة كبيرة من الأدب، لا أعرف كيف ومتى حصلها لنفسه. على أنه ما من ريب في أن ذاكرته الواعية قد أفادته في ذلك كثيراً، فهو سريع الملاحظة قوي الحافظة، وهو مع ذلك أيضاً بارع الأسلوب؛ متين العبارة. يحسن تخير الألفاظ، ويجيد سبكها معاً بما يتفق والمعنى المراد، ولعله لو قسم له أن يتفرغ للأدب لكان وهو في هذا السن الشاب من أبرز الأدباء وأحسنهم أسلوباً ومادة.

بيد أن الأقدار اختارته لتاريخ مصر وآثارها، لحب فيه عارم لتاريخ بلاده وحضارتها. وعلى صعوبة الدراسات الأثرية ومطالبها فقد ضرب فيها بسهم وافر يهيؤه لأن يكون أحد المبرزين فيها. وقد سبق أن ترجم لبعض الشخصيات المصرية القديمة فأجاد العرض والاستقصاء في صورة بليغة جميلة قلما نجدها في كتابة التاريخ والأخبار.

وها هو كتيب في الأدب المصري القديم، أعده في سويعات فراغه من عمله ومشاغله، فأحسن فيه العرض والوصف، وألم فيه بكثير من الأصول والفروع، بما يكفل للقارئ صورة واضحة عن أدب المصريين في أزمتهم القديمة، وقد جعله من قسمين، القسم الأول روى فيه قصة هذا الأدب وصف فيه في إيجاز واختصار طبيعة وادي مصر الذي كان "معين الفكر، ومستودع الثقافات، ومنبعاً لأقدم الحضارات"، ثم لم يلبث أن عرج يصف أحوال سكانها وأخبارهم، وتطور لغتهم وما حفظ من تراثهم الأدبي خلال فترات تاريخ مصر القديم. فإذا انتهى من ذلك أفرد القسم الثاني لمختارات اختارها من هذا التراث، أحسن إبرازها حسب عصورها المختلفة، مقدماً

لها ومعقباً عليها بما يشرح بعض خصائصها وسماتها في صورة مركزة وافية، تغني عن كل تقديم.

أنور شكر

هذا الإقليم .. مصر

بقعة خصها الله وفضلها على كثير مما خلق من بقاع الأرض تفضيلاً.

وقعت موقعاً ممتازاً فكانت مركز العالم القديم، وأطلت على بحرين شهدا من تاريخ الإنسانية القدر العظيم من إفريقية كان أكبر أجزائها.

وأسهمت فيها آسيا بسيناء في شرقها.

وأطلت على أوروبا من نافذة الأخضر العظيم.

كما سمي البحر أجدادنا في القديم.

ولم يكن البحر فاصلاً ولا حائلاً، بل كان حلقة اتصال وطريقاً سهلاً لم يصعب على الأقدمين، ولا على آبائنا الأولين. وامتاز الأبيض المتوسط بما امتد بين ساحليه من جزر أعلامها قبرص وكريت، كانت كالجسر، يغري بالإبحار، والاندفاع في الأسفار.

وإن الله لقسم الحظوظ ويفرق الأرزاق بين البلاد، كما يقسمها بين العباد. كانت معين الفكر ومستودع الثقافات، ومهداً ومنبعاً لأقدم الحضارات. ومنها خرجت الأديان وفلسفة العقائد قبل أن تنزل الكتب ويبعث الأنبياء ثم كانت من بعد مدرسة لما تنزل من الرسالات وأديان السماء.

كانت على الحالين من وثنية وإيمان كعبة القاصدين ومنهل الدارسين. على أرضها كلم الله موسى وبعثه لهداية العالمين.

وأقبل عليها يسوع في المهد وكانت به أسبق المؤمنين.

ثم صارت آخر الأمر، حصن الإسلام ومعقله الحصين.

وسبحان ربك الأكرم، الذي أنبت في مصر القرطاس والقلم، وجعلها المدرسة التي فيها علم الإنسان بهما ما لم يعلم.

إذ تأذن لأهلها فجعلهم أول من يكتبون، وعنهم أخذ الناس القلم وما يسطرون.



حجر الجير، كان من مواد الكتابة عند المصريين الأقدمين

طبيعة البلاد وأثرها في المصري

هي بقعة بسيطة لم تزد عن أن تكون صحراء شاسعة ممتدة تكاد تخلو من التلاع والحزون، توحي في امتدادها هذا البعيد وما يشملها من سكون غامر يقر في النفس الروعة والرهبة بمعاني الاستقرار والخلود، ويخطها نيل "مبارك الروحات ميمون الغدوات، يجري بالزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر" في واد خصيب أنشأه من طميه على مر العصور وانقضاء الدهور.

ولقد كان النيل للمصريين منبع الحياة ومصدر الخير، فلا جرم أن يقدروه فيعبدوه، ويضبطوا له موعداً ليستقبلوه، لذلك نرى تقلب وجوههم في السماء والنظر في النجوم، فكان أبا للتقويم ومساحة الأرض والحساب، فإذا هو كذلك من مصادر المعرفة ومنابع العلوم.

وجدوا أول بشائر الفيض تطلع بالمياه الحمراء عند رأس الدلتا مع بزوغ نجم الشعري اليمانية فبيل الشروق. فحسبوا ما بين بزوغها بخمسة وستين وثلاثمائة يوم. كانت عندهم أمد العام. ثم جعلوا عدة الشهور فيه اثنى عشر شهراً من أيام ثلاثين. ثم قفوا عليها بخمسة أيام نسيئاً.

وكانت فصول العام ثلاثة حتمها كذلك النيل:

فصل الغمر إذ الأرض تحت الفيض الغامر.

وفصل البروز حين تبرز الأرض بعد نكوص النيل وانحسار مائه فيكون البذر والزرع.

ثم فصل الحصاد حيث يجنون ثمار ما زرعوا.

وكان النيل بالنسبة للبلاد كالشريان الذي يجري في جسم واحد. بفضله ترابطت أعضاؤه وتواصلت أجزاؤه، وكان طريقاً مهد لأبنائه سبيل التنقل والأسفار. وسلكهم في سبيل التعاون والاتحاد، حين يجتمعون عليه لصد فورة مائه؛ أو للاستقاء منه بحفر القناة وشق الخليج.

وشمس وضاحة سافرة أبداً تشرق من سماء صافية قل أن تتبرقع بالسحائب والغيوم. وترى الشمس إذا طلعت تجلى كل شيء واضحاً صريحاً في غير ظلال تثير الخيال بالتشبيه والتأويل. إذ لا تكاد الأصباغ والألوان تبدو عند مشرقها حتى يبددها ضوؤها الساطع الباهر، فإذا كل شيء سافر على حقيقته. وإذا غربت لم يلبث الغسق إلا قليلاً حتى يجن الليل البهيم. فكان أن طبعت نفس المصري لهذا كله بالصراحة والوضوح. وعقله بالتصور المادي والواقع الملموس.

وكذلك فإن ما انقسمت إليه طبيعة مصر من عناصر متناظرة أثره في المصري من حيث التفكير والتعبير، فالنيل يشق الأرض أرضين متشابهتين في شرق وغرب، حيث يجد كل عنصر من عناصرها ما يقابله ويناظره. ويتطلع المصري إلى طبيعة بلاده فإذا ضفتان متقابلتان وسهلان متشابهان يكتنفهما من الجبال سلسلتان متماثلتان وصحراوان متناظرتان. فأصبح المصري لا يكاد يفكر في شيء أو يتصور شيئاً إلا وجعل له نظيراً يقابله ونداً يماثله. فآمن بوجود الآلهة وجعل لها أزواجاً، وتصور مع العالم الذي يعيش فيه والسماء التي تظله عالماً سفلياً وسماء من تحته تقابلهما. وانطبع

أسلوبه في الأدب والفن بذلك، فأحب التماثل والمقابلة، والجمل المتشابهة والألفاظ المترادفة.

وجو فيه اعتدال كان من حوافز الكد والنشاط، وإن مال الحر والجفاف فيه إلى الرجحان. وكان كذلك من بواعث التفكير في البقاء والخلود. لأن الرمال الجافة قد وقت جسوم موتاه وآثارهم وحفظتها من أن يسرع إليها التحلل والفناء. ومع ذلك فقد كان يخفف من قيظ الصيف ولفح حره ريح تقبل من الشمال من قبل البحر، أحبها المصريون وعدوها من متع الدنيا والآخرة.

ومهما يكن من شيء، فقد كانت الشمس والنيل أقوى عناصر الطبيعة في حياته وخياله، وتصوره وعقائده، وفي الإيمان بالرجعة والمعاد، كلاهما له فضل لا ينكر على الحياة والأحياء، وكلاهما تجري عليه آية التجدد والنشور. وقد بلغ من تقدير المصريين لهاتين الآيتين أن رفعوهما إلى مرتبة الألوهة والتقديس.

وفضلاً عن هذا كله، فإن ما تركه لنا المصريون من الأغاني والأناشيد ليكشف لنا عن تأثر بالطبيعة، وشعور حي بجمالها وإحساس بمظاهرها ومناظرها، ولقد بلغ ذلك غايته في أناشيد أخناتون، التي تنطق عن حس مرهف وشعور قوي.

المصري من البداوة إلى الحضارة

لم تكن مصر ولا كان العالم منذ العشرات الكثيرة من آلاف السنين كما نعهدهما منذ اليوم، فقد أتى حين من الدهر كان شمال إفريقية فيه رطباً تهطل فيه الأمطار. لذلك فقد كان يكسو وجه الأرض فيما يكتنف وادي النيل من هضاب – حيث الصحاري الآن – غطاء نباتي من حشائش وأشجار وكان أن عاشت في تلك البيئة المطيرة العاشبة أنواع كثيرة وفصائل مختلفة من الحيوان، كالظباء والوعول والأرانب وحمر الوحش والزراف والنعام ومن كواسر السباع الأسود والفهود.

ولم يكن وادي النيل يومئذ مهداً صالحاً لحياة الإنسان لما ملأه من المناقع والأخوار، فكانت على تلك الهضاب كذلك حياة المصري الأول، وقد بدأ حياته قانصاً صائداً. فلم تكن له يومئذ من وسائل الرزق إلا ما يجد من النبت الطبيعي، وما يستخلص من الصيد بعد طراد شاق جهيد. فيظل يتعقب الطريدة من مكان إلى مكان. حتى إذا جن عليه الليل مال إلى كن يؤويه حتى يسفر الصبح. ليستأنف حياته تلك الشاقة المجهدة.

ويمضي الزمان ويتغير المناخ. فتظل السماء تقتصد في غيثها للأرض حتى تشح؛ وتظل الأرض كذلك تتجرد من النبات حتى يضطر الحيوان إلى طلب الكلأ والانتقال بالتدريج إليه ومن ورائه الإنسان. فإذا الحياة بذلك تقترب من وادي النيل، وكان قد تهيأ أثناء ذلك لاستقبال الإنسان، فعمق مجراه وردمت فيه أكثر المنافع بما يحمل من طمي. وظل الإنسان كذلك

حتى استقر على حوافه ومشارفه، ثم لم يلبث أن نزل إليه واعتمد على مائه وإن ظل يعتمد على الصيد اعتماداً غير قليل.

وكان هذا الاستقرار فاتحة خير في حياة المصريين وما أصابوا من تقدم ورقي، فقد ارتبط الإنسان بالأرض التي سكن والتربة التي زرع، واستطاعت الزراعة أن تفيء عليه من الرزق ما أغناه كثيراً عما كان من الجري وراء الصيد. وأن تميزه بفضل من غذاء يدخره حتى يحول الحول وتمده الأرض برزق جديد. فكان أن أتاحت له تلك الحياة شيئاً من فراغ يخلد فيه إلى الراحة والدعة، وإلى التأمل والتفكير، ففتحت له أبواب لم يألفها من الثقافة والفن، وجود ما اصطنع من آنية وأداة. ثم زخرفها ببعض ما انطبع في نفسه من مظاهر الطبيعة الحية أو الجامدة.

ومع ذلك فلم تكن هذه الحياة الجديدة المستقرة لتخلو من الكد والكفاح. ولكنها اقتضت من المصريين جهداً كبيراً وكدحاً متصلاً، واقتضت منهم لذلك التعاون والارتباط. ثم كان أن دخل بعضهم مع بعض في معاملات البيع والشراء في أسواق تعارفوا عليها. فنشأ عن ذلك المجتمع المنظم، وكانت القرية والمدينة التي تداعى أهلها ليشهدوا منافع لهم وليجتمعوا على رب يسبحونه وحاكم يسوسهم. وظلت المنافع تدفع الناس بعضهم لبعض فترتبط طائفة من القرى والمدن في نطاق الإقليم الذي رسمته الطبيعة حتى نشأ من كل إقليم من أقاليم الوادي وحدة سياسية مستقلة بحكامها وأربابها.

ومع ذلك فقد قضت ظروف الوادي باتحاد تلك الأقاليم، فنشأ منها مملكتان شملت إحداهما الدلتا واحتلت أخراهما الصعيد، ثم لم تلبثا أن انتظمتا في اتحاد متين، وفي ظل حكومة قوية راسخة عملت على ترقية البلاد ورفعة شأنها، وذلك بفضل جهود أبنائها من حكام وأفراد وما كان لملوكها من الشخصية القوية والإيمان الراسخ.



الآلهة سشات ربة الكتابة

ولقد كان هذا الاتحاد فاتحة عهد زاهر رائع من تاريخ مصر، لأنه لم يقتصر على أن يكون اتحاداً سياسياً بين مملكتين، ولكنه كان القمة التي التقت عندها يومئذ جهود المصريين وانتصاراتهم في كل الميادين.

فما تكاد شمس الاتحاد تشرق على الوادي حتى كان المصريون قد عرفوا الكتابة وخرجوا منها من مراحل المحاولة والتجربة، ولقد كان الاتحاد وما صاحبه من قيام دولة قوية لها نظامها السياسي والإداري المتين، وحرصها لذلك على استخدام جمهور من الموظفين والكتاب، وتشجيعها لهم بفتح باب الرقي في وجوههم، أثره في إقبال الناس على الكتابة والتعليم، بل يكاد المصريون أن يكونوا أشد الأقدمين حباً للكتابة وتقديراً للعلم، وآية ذلك أنهم جعلوا للحكمة رباً هو جحوتي وللكتابة ربة هي سشات.

وفضلاً عن ذلك فقد كان لقب الكاتب من أعز ما اتخذ المصريون من ألقاب، فنحن لا نكاد نجد قبراً من قبور أشراف الدولة القديمة إلا واتخذ صاحبه لقب الكاتب أو ما يتصل به، وقد يكون الشريف أميراً أو وزيراً أو قاضياً أو حاكم إقليم، ولكنه مع هذا يتخذ لقب الكاتب كأنه إنما اتخذ للدلالة على التعليم والثقافة. وكأنه يعادل عندنا لقب الأستاذ في استعماله وإطلاقه. ومهما يكن من شيء فلقد كان لهذا كله أثره العميق في تطور اللغة وازدهار الأدب المصري القديم.



تمثال الكاتب المصرى بالمتحف المصرى بالقاهرة

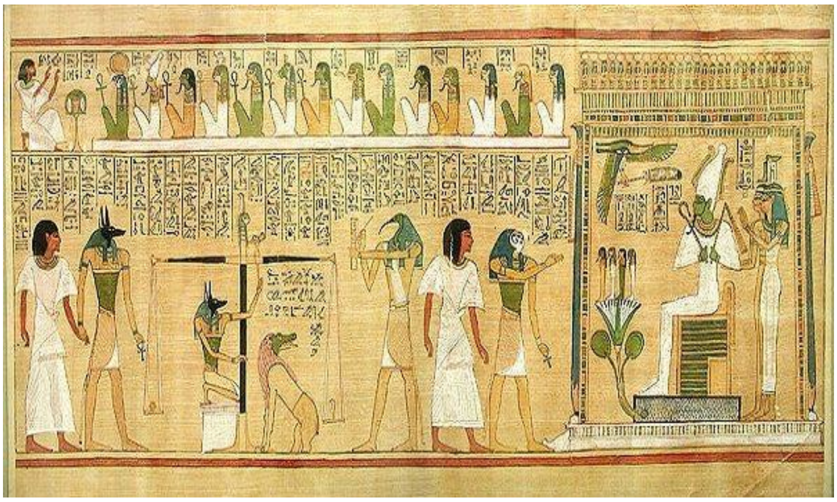
تطور اللغة

وإذا اللغة منذ عصر الدولة القديمة تتعرض لكثير من عوامل التطور والرقي، وذلك من حيث قواعد النحو والصرف وطريقة الهجاء ورسم الكلمات، وظلت كذلك تخرج من بداوتها وتتخلص من جاهليتها، حتى إذا كانت الدولة الوسطى، إذا باللغة المصرية قد تهذبت وصقلت، وبلغت كامل رونقها وأوج ازدهارها، واتخذت طابعها الأصيل الذي عرفت به، والتي كانت البيان المبين لروائع الأدب المصري القديم، وإذا لغة ذلك العصر هي اللغة المثالية النموذجية، أو التقليدية الكلاسيكية كما يسميها علماء اللغة المصرية القديمة، وهي قد كانت كذلك في نظر المصريين أنفسهم، فإن المتأخرين من عهد الأسرة السادسة والعشرين، لما حاولوا أن ينهضوا بالبلاد ليعيدوا إليها مجدها الغابر بعد الذي لقيت من المحن والكوارث، ونظروا في ترقية اللغة، قد عادوا بها إلى لغة الدولة الوسطى.

فلما كانت الدولة الحديثة، كانت اللغة قد بدأت تتعرض لتطور جديد، وطفقت تتحلل من بعض قيود النحو والصرف، وتخضع لما يفرضه عليها المتحدثون من عامة الناس، وذلك فضلاً عما أدخلوا إليها من الألفاظ الأجنبية بعد اتصالهم بمن حولهم من الشعوب، وقد بدأوا يستعملونها تأنقاً وتظرفاً، فإذا المصريون يتحدثون بغير ما يكتبون. ومع ذلك فقد تأثرت لغة الكتابة بلغة الحديث ثم لم تلبث اللغة الفنية الأدبية أن نزلت إلى لغة العامة، وإذا آدب ذلك العصر تميل في أغلبها إلى

أساليبهم، وكانت ثورة أخناتون الدينية من عوامل إفساح المجال للإنشاد باللغة الشعبية، ذلك أن من الحيف والجور، وذلك في أسلوب مبين وقول عذب طرب له الملك، فأمر الحاكم بالتراخي في إجابة الفلاح والتلكؤ في رفع الظلم عنه استزادة من بيانه، كما أمر بتدوين ما يقول ورفعه إليه(١).

وقصة الفلاح الفصيح كما كتبها المصريون إنما قصد بها إلى إمتاع القارئين والسامعين بما أوردته من البيان والبديع، وهي تكاد تشبه المقامات في الأدب العربي، فلا تكاد شخصية الفلاح لتختلف عن شخصية عيسى بن هشام التي اخترعها بديع الزمان الهمذاني، أو شخصية أبي زيد السروجي التي اخترعها الحريري، ثم أجريا على لسانيهما ما شاءا من البيان.



(إله الحكمة) تحوت رب الأقوال الإلهية كما سماه المصريون

---

(١) وهي تذكرنا بقصة الفلاح العربي الذي شكا عامل الخراج بقوله:
"إنه ما ترك ذهباً إى ذهب به، ولا فضة إلا فضها، ولا عرضاً إلا عرض له ولا مالاً إلا مال به، ولا ضيعة إلا أضاعها، ولا ماشية إلا أمقشها، فأعجب به الأمير وأنصفه.

كذلك ورد في بعض آداب المصريين أن الملك سنفرو دعا رجاله يوماً فسألهم أن يجدوا له من بينهم واحداً فيه من الحكمة والمقدرة فيحدث جلالته بالأقوال البليغة والأحاديث المختارة التي تسر قلب جلالته.

ولقد أدرك الملوك والكهان حب المصريين للأدب وإقبالهم عليه وتأثرهم به، فكان أن استخدم في الدعاية الدينية والسياسية، وفي توجيه عواطف الناس وأفكارهم إلى بعض مذاهب الدين أو اتجاهات السياسة فكانوا يستغلون شغف الناس بالقصة والرواية فيتحدثون إليهم بالقصة الشيقة التي تثير الشغف والإنصات، وهم في أثناء ذلك يبثون في تضاعيفها ما شاءوا من الدعاية، ويوحون للناس بما يجرون على لسان أبطالهم من النبوءات والكهانات. كان ذلك مثلاً أواخر الأسرة الرابعة، حين طفق كهان الشمس يبشرون بدينهم ويدعون لدولتهم التي يقبض زمامها فيما رووا ملوك زعموا أنهم ولدوا لإله الشمس من امرأة من الشعب، وتكرر ذلك أيام الدولة الوسطى في نبوءة نفرر حو، التي بشر فيها بحكم أمنمحات الأول وفي الدولة الحديثة عن مولد حاتشبسوت الإلهي.



(كسر الفخار) اتخذت كذلك من البردي وعاء لحكمة المصريين وآدابهم فضلاً عن أمور معاشهم

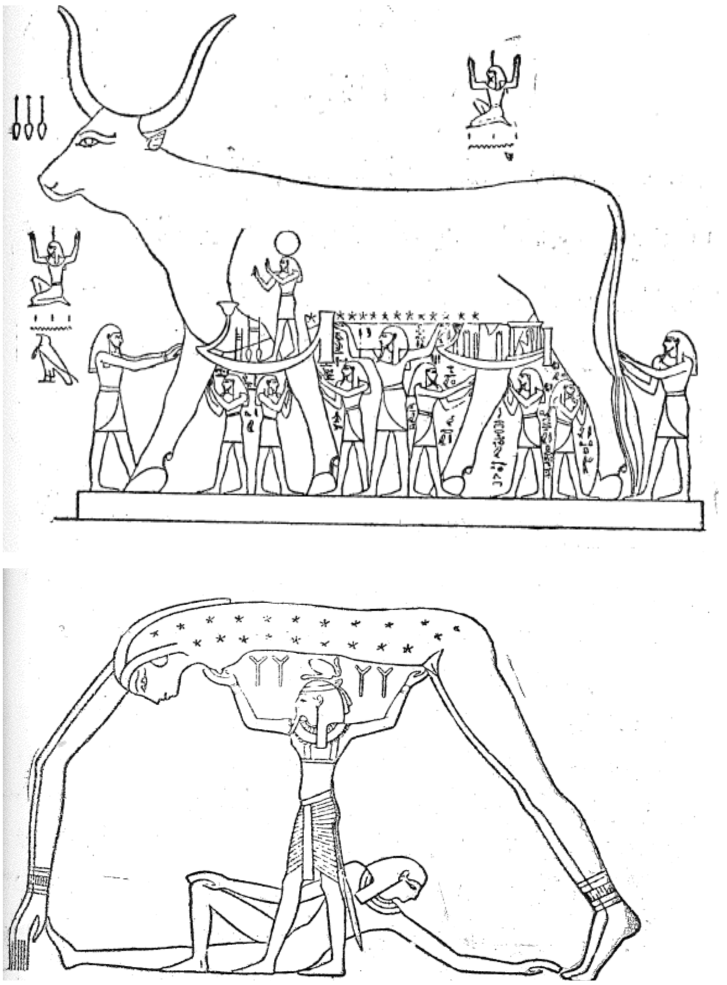
تراثنا الأدبي

من الخطر أن نخضع الآداب لما عندنا اليوم من المقاييس والمعايير، وأن نعيب على المصريين الأقدمين أدباً أنتجوه ولم يحقق لنا كل الذي نريده من آدابنا منذ اليوم، فنقفز بذلك هوة سحيقة من الزمان ونسقط من تقديرنا عشرات من القرون في حساب التطور الفكري والأدبي، ولذلك فينبغي أن نصدر في حكمنا على الأدب القديم على أساس من تقدير العصر الذي أنشئ فيه والثقافات التي أخذ عنها وأسهمت في إنشائه.

ومع ذلك فقد وضع المصريون القدامى الأسس الأولى في بناء الفكر الإنساني والإنتاج الأدبي الرفيع، وأنتجوا لنا أدباً ما زال يؤثر فينا ونجد له في نفوسنا شعوراً بالرضى والإعجاب.

ومهما يكن من شيء، فقد ملك المصريون ناصية المعاني والأفكار، وكانوا حريصين فضلاً عن ذلك على تجويد الكلام والوصول به إلى أقصى ما استطاعوا من الجمال الفني والتأثير الأدبي، بما حفل به من ضروب البيان والبديع، وما اصطنعوا فيه من التشبيه والاستعارة والكناية والتورية والجناس. وحسب الذين ينظرون في أدب المصريين القدامى أن يعلموا أنهم أخرجوا للناس كثيراً من الصور والتعبيرات التي فرضت نفسها على آداب من جاورهم من الأمم والشعوب، ثم وجدت سبيلها إلى كتبنا المقدسة التي أثرت في آداب العالم القديم والحديث، وقد كان طبيعياً أن تتحدث الكتب المقدسة إلى الناس بما كانوا قد ألفوا من قبل من الصور والأخيلة والتعبيرات.

ونعرف مما وصل إلينا أنهما كتبوا في المديح والرثاء والغزل والغناء، بل كتبوا في أكثر من ذلك من أغراض الأدب وفنونه، واستطاعوا وصف المشاعر الإنسانية من الحزن والفرح، والغضب والرضا ومن اللذة والألم.



السماء بقرة وامرأة: تشبيهات وأخيلة شعرية اتخذت سبيلها إلى فنون الرسم والتصوير

الشعر

ولقد انحدرت إلينا من آداب المصريين قطع أجمع علماء اللغة المصرية القديمة على أنها شعر، ومع ذلك فلسنا نعرف من هذا الشعر عروضاً ولا وزناً، وهو غير مقيد بقافية، ولكن الذي يمكن قوله عنه إنه كلام صيغ في لغة رفيعة، وإنه يقع في فواصل وجمل قصيرة يرجح أنها شعر.

أدب الدولة القديمة

لم يكد يصل إلينا من آداب الدولة القديمة إلا النزر اليسير، ولسنا نعرف منها إلا ما حفظت المقابر والأهرامات المنقوشة من المتون الدينية والجنزية، ومناسك العبادات، وما كان الأشراف يسجلون في قبورهم من تراجم حياتهم، وما خبروا أثناء ذلك من شئون الوظائف، وما أدوا من جلائل الأعمال، أو أبرموا من المواقع والأسفار، وما منحهم الملك من لقب أو هبة يقدرونها ويفخرون بها على الأزمان، وقد كان طبيعياً أن ينشأ هذا النوع من الأدب في مجتمع كان الدين قوام حياته الفكرية والثقافية، وفي دولة بيروقراطية قامت على سواعد الموظفين وجهودهم.

ولقد كان الدين أعمق ثقافاتهم أثراً في تصوراتهم وأخيلتهم، وكان مدعاة لكثير من الأدعية والمتون، فكان من عوامل النهوض بالتعبير والإنشاء، ويتجلى ذلك واضحاً فيما حفظ من نصوصه وعلى رأسها متون الأهرام التي تفيض بالأخيلة والتشبيهات والاستعارات والمجاز والتورية والجناس. وكان من طبيعة المصري تشخيص أفكاره وأحاسيسه في صور حية – كأنما كان يفكر بالصور – حتى ذهب بعض العلماء إلى أن الرسوم والتصاوير الدينية كتصوير السماء بقرة أو امرأة إنما كان في الأصل مجرد تشبيهات أو أخيلة شعرية، ازدادت مع الزمن استقراراً في اللغة وقرباً من الشعب، حتى وجدت سبيلها إلى الفن.

وقد يتمثل كذلك من آداب الدولة القديمة فيما كان الآباء من كبار الموظفين – وقد تقدمت بهم السن والتجربة – يزودون أبناءهم به من الحكمة والموعظة الحسنة، وإن انحدرت إلينا في أوراق ترجع إلى الدولة الوسطى على أقل تقدير، ولعل هذا النوع من الأدب أن يكون قد ظهر واضحاً جلياً منذ النصف الثاني من الدولة القديمة، منذ أصبح الأبناء يخلفون آبائهم في الوظائف فكان من الحق على الأب أن يبصر ولده فيما هو مقبل عليه من منصب خطير، وأن يهديه سواء الصراط.

وليس يعني ذلك اقتصار الأدب في الدولة القديمة على ما سلف من أغراض، ولا ريب أن الغناء والقصة قد انتشرا في ذلك الأوان، وأن الناس إنما كانوا يتداولونهما بالرواية والسماع قبل أن تعم الكتابة وينتشر التدوين.

عصر الانتقال الأول

ومهما يكن من شيء، فقد طفقت قوة الدولة القديمة تنحدر ويلحق بها الضعف والانحلال، وقدر الملك بيبي الثاني آخر ملوك الأسرة السادسة أن يعمر ويقبض على السلطة أمداً لم ينبغ لأحد من الملوك في التاريخ، إذ بلغ حكمه نحواً من أربعة وتسعين عاماً، وكان لشيخوخته الطويلة الأثر الحاسم في انقضاض صرح ادولة وانحسار نفوذها، فتراخت قبضة الحكومة على سائر البلاد، واستقل حكام الأقاليم بأقاليمهم، وأصبحوا ملوكاً أو كالملوك، ووقعت البلاد في عهد من فتنة وانقسام سياسي واضطراب اجتماعي لم تعرفهما منذ اتحادها.

ومع ذلك فقد صاحبت تلك الأحوال ثورة فكرية ونهضة أدبية رائعة فلم يعد للملك تلك المنزلة والهيبة الإلهية التي وقرت من قبل في النفوس، ولكنه عاد في عيون المصريين إنساناً يجري عليه مثل ما يجري على الناس جميعاً، فتزعزت عقائد، واهتزت مثل وقيم قدسها المصريون من قبل، وانهارت في أعينهم قيمة القصور المنيفة والمقابر الضخام، فكان أن انطلقت الألسنة المعقولة والأفواه المكمومة، تصف ما تجد وتعبر عما يختلج بالمشاعر والنفوس، وكان من أروع ما وصل إلينا من آداب تلك الفترة أحاديث أيبوور الحكيم، ووصفه لحال البلاد في ذلك الزمان، فهو يتحدث إلى ملك شيخ – هو في أكبر الظن بيبي الثاني الذي لها عن كل شيء فهو لا يعرف من أمر بلاده إلا ما تتحدث به بطانته من الكذب والزور، ولكن

أيبوور يقتحم عليه سكينته التي أخلد إليها واستنام لها، فيصف له في أسلوب رائع حزين حال البلاد وما تردت فيه من الاضطراب والإفلاس وما حل بالناس من المحن والخطوب فذل العزيز وعز الوضيع.

ولقد نتج عن تلك المحن التي نزلت بالبلاد كثير من التأملات والأفكار وعم كثير من الشك والإنكار، وتفرق الناس في ذلك شيعاً ومذاهب شتى، ووصلت إلينا قطع أدبية ممتازة من ذلك العصر الذي كان فترة انتقال بكل ما في عهود الانتقال من التيارات المختلفة وتصارع الأفكار، ومن هذه القطع ما يدعو إلى التمتع بالحياة واتباع الأهواء والشهوات "لأن أحداً لا يأخذ متاعه معه ولا يعود بعد رحيله". ومنها ما رأى الحياة تافهة لا معنى لها وأن الخير والراحة في الموت.

ولكن هناك نفوساً صهرتها المحن فزادت أصحابها إيماناً بالآخرة، فلم تعد تقيم وزناً للثروة في الدنيا وزخرفها، ولم تعد ترى في ضخامة الأملاك والقبور شيئاً يفيد. ولكنهم رأوا السعادة في صالح الأعمال وفيما يؤدي من الفضائل، فأشادوا بالنظام والعدالة، وبشروا بأن الخلود لا تسوغه وجاهة أو ثراء وإنما سبيله اجتناب الآثام وفعل الخيرات "فإن فضيلة من يؤثر الحق لأحب (عند الله) من الثور الذي يقدمه المذنب قرباناً"(١).

ولقد تأثرت الملكية بما ساد يومئذ من المثل والأفكار، فإذا الملكية

(١) فعل العدل والحق أفضل عند الرب من الذبيحة (سفر الأمثال ٣١ – ٣) هذا ويلاحظ أن الكلمة المصرية "ماعت" تعني الحق والعدل. ويذكرنا ذلك بما ساد في العصر العباسي من نزعة إلى المجون كان زعيمها أبا نوار ونزعة إلى الزهد كان زعيمها أبا العتاهية.

"وظيفة" لها واجباتها الثقيلة وتبعاتها الجسام، ولم يعد الملك يعلو على شعبه فلا يحس بآلامه وحاجاته، بل أصبح يستشعر المسئولية عن أمن ذلك الشعب ورفاهيته، فإذا بنا أمام قطع أدبية تجري على أفواه الملوك، ومنها نصائح يسديها الملك إلى ولي عهده كي يقوى على التخلق بأخلاق "الزعامة الجديدة"، التي تكفل له حسن قيادة شعبه. وكان ذلك تمهيداً لقيام الملكيات الديمقراطية وعودة البلاد إلى الوحدة والنظام، وتحقيق ما قد طال ما تمناه الشعب بعد أن شقي بالتفرق والانقسام، ولم يطل شوق الناس إلى المخلص المنتظر، فقد انتشرت البشرى على لسان كاهن يدعى نفررحو بمجيء الملك القوي الذي يقبض زمام البلاد فيقيلها من عثرتها.

أما الأدب الديني فقد تعرض لتطور بعيد المدى لما طرأ على العقائد في تلك الفترة من الذيوع والانتشار بين عامة الناس بعد خاصتهم، ولم تعد نصوص الأهرام وقفاً على الملوك تتلى من أجلهم ليس غير، بل اتخذها الناس جميعاً لأنفسهم، وقدروا أنهم يشاركون الملوك والأشراف في مصائرهم. فنقشت على توابيت الخاصة والعامة. وظل الناس يتداولونها حتى أصبحت في الدولة الحديثة صلب ما يسمى "كتاب الموتى".

الدولة الوسطى

فلما كانت الدولة الوسطى، إذا بالأدب المصري قد بلغ غاية ازدهاره وروعته. وتنحدر إلينا من آيات من روائع البيان. ونقرأ منها أغاني العمال والترانيم الدينية العذبة لآلهة المصري كالشمس والنيل فضلاً عن مدائح الملوك.

وكانت القصة قد ظهرت يومئذ وقد اكتملت عناصرها وأسباب قوتها بما جمعت من إحكام أحداثها وعقدتها وختامها. وما يتردد فيها من الحوار الذي يضفي عليها القوة والحياة. وذلك فضلاً عن سلامة الوصف والتحليل وحسن التعبير عن المشاعر. مع تأنق في اللفظ وثروة في ضروب البيان من التشبيه والاستعارة والكناية وسوق المثل السائر. وقد اشتهرت من ذلك قصتا سانوهي والبحار الغريق.

عصر الانتقال الثاني

على أن الدولة الوسطى لم تلبث أن دب إليها الضعف والانحلال، وحلت بمصر فترة أخرى من الضعف أطمعت فيها هذه المرة من جاورها من الشعوب فخضعت أمام غزو الهكسوس، وشقي المصريون منهم باحتلال طال عليه الأمد.

ولكن المصريين لم يكونوا ليستكينوا لحكم الأجنبي أو يستنيموا لاحتلال الغاصبين، ودخل الأدب ميدان الوطنية ليعبئ المشاعر ويذكي الحماس، وانتشرت القصص والأحاديث التي تصور ظلم الهكسوس وافتئاتهم. وتستنكر بقاءهم، حتى هبت مصر عن بكرة أبيها فأجلتهم عن البلاد وطهرت منهم الأرض.

الدولة الحديثة

وتبدأ مصر منذ تخلصها من احتلال الهكسوس عهداً زاهراً مجيداً وتغلغلت في نفوس أبنائها الروح الحربية والنزعة الوطنية، وأقبل الشباب على الجيش ينخرطون فيه ويندفعون في معاركه، ثم يفخرون بما شهدوا من ضروب الشجاعة والإقدام تحت لواء الملك الذي لم يكن أقل اعتزازاً وفخراً.

وكان لقيام الإمبراطورية واختلاط المصريين بمن حولهم من الشعوب وما تدفق على البلاد من ثروة، وما تمتعت به يومئذ من الرخاء والترف أثره العميق في حياتها وحضارتها، وحظي الأدب من ذلك بنصيب وافر من الثراء والخصب، فقد انتقل المجتمع المصري إذ ذاك نقلة لم تعهدها مصر من قبل، وكثرت المآدب والحفلات بما فيها من الرقص والغناء. وكان المصريون مغرمون بهما واكتسبت المشاعر دماثة ورقة نرى آثارهما في إنتاجهم في الفن والأدب جميعاً. فقد تعددت موضوعات الأدب وذاعت أناشيد الحب وأهازيج الغزل، يعبر فيها الشباب عما يجد من اللوعة والحرمان لبعد الحبيب وعسر لقائه، ولم يجد المجتمع المتطور يومئذ حرجاً في أن يجري ذلك على لسان الفتى أو الفتاة، وأقبل المصريون على سماع القصص والأساطير، فذاعت أحاديث السحر وخوارق الأعمال. وربما جعلوا شخوص قصصهم من الملوك أو الآلهة، ولا يجدون عيباً في أن يتباعض الآلهة ويختصموا. وأن يتهم بعضهم بعضاً بما يؤدي النفس أو

يخدش الحياء. فكأنهم كانوا أساتذة الإغريق كذلك فيما أخرجوا في هذا السبيل من أساطير أبطالها الآلهة من الذكور والإناث بل لقد رووا من القصص ما كانت أبطاله شخوصاً معنوية مجردة كالذي كان بين الحق والباطل وما دار بينهما من صراع أصيب فيه الحق بالعمى قبل أن ينتصر آخر الأمر.



(أمنتحب بن حابو)

وزير الملك أمنحتب الثالث؛ حكيم آخر رفعته حكمته إلى مصاف الآلهة في العصور المتأخرة

وحظي الأدب التعليمي والتهذيبي بعناية المصريين. وتمتع من اهتمامهم بحظ عظيم. وتبادل الناس رسائل الأدب والمناظرة فضلاً عن الرسائل الإخوانية والمجاملات الاجتماعية. وقد ساعد على ذلك كله

انتشار التعليم والثقافة بين الناس. وشيوع الكتابة والتدوين. وما اقتضته أحوال مصر السياسية والاجتماعية والثقافية من توسع في صناعة ورق البردي.

ولم يكن الأدب الديني في الدولة الحديثة بأقل حظاً من غيره انتشاراً وازدهاراً. وظلت الترانيم تتردد في المعابد بحمد الآلهة وعلى رأسها آمون.

بل لقد كانت الانتصارات وجلائل الأعمال التي يحرزها الملوك إنما تضيف مجداً إلى مجد آمون الذي سدد خطاهم وهداهم سبيل الرشاد. فيزداد الملوك له حمداً وتمجيداً بالقرابين والأناشيد. على أن أروع ما نعرف من أناشيد الدولة الحديثة الدينية إنما كانت أناشيد أخناتون الذي صاغها وترنم بها لربه الذي دعا إليه، وحمل الناس على عبادته وحده لا شريك له. ورمز له بقرص الشمس ثم طفق يعدد آلاءه ونعمه على العالمين.

صور من كلامهم

الدولة القديمة

من متون الأهرام

حمداً لك يا أتوم

حمداً لك يا موجود

يا من نشأ من ذاته

يا رفيع في اسمك "الرفيع"

حمداً لك يا عين حور[1]

يا من زينك بيديه

إنه لا يدعك تسمعين للغربيين

إنه لا يدعك تسمعين للشرقيين

إنه لا يدعك تسمعين للجنوبيين

إنه لا يدعك تسمعين للشماليين

إنه لا يدعك تسمعين لمن هم في أواسط الأرض

ولكنك تسمعين لحور

---

(١) يخاطب مصر في هذا البيت وما يليه حتى آخر القصيدة.

إنه هو الذي زينك

إنه هو الذي شيدك

إنه هو الذي أسسك

فافعلي له كل ما يأمرك

وهذه مراث وصلوات للملك المتوفي:

أيا أو ناس، لقد بكيت من أجلك.

وانتحبت من أجلك.

إنني لن أنساك.

ولن يكل فؤادي من تقديم القربان إليك كل يوم.

أيا أيتها البقرة الحلوب هناك

أيا أيتها البقرة المرضعة هناك

أذهبي من حوله

وابكي من أجله واحمديه

وانتحبي من أجله

إذا ما صعد وعرج إلى السماء.

بين اخوته الأرباب

لقد غامت السماء

وسقطت الأنجم مطراً.

واحترقت الأقواس

وارتعدت عظام جب[٢]

عندما رأى كيف أقبل نشيطاً كالإله

يحيا على آبائه ويتغذى بأمهاته.

دعا للملاح الذي يعبر بالملك المتوفي إلى الآخرة:

أيا أيها الملاح في مياه القرابين.

هات لاوناس هذا السفين

إن أوناس يذهب وينبغي أن يجئ

إنه ولد لزورق الصباح

الذي حمله بين يدي الأرض

يا أيها الذي تعبر بالمبرئين الذين لا زورق لديهم

يا ملاح مناقع الغاب

إن أوناس أمام السماء

---

(٢) إله الأرض

إنه القزم الذي يرقص للإله(٣)

إنه هو الذي يسر قلب الإله قبالة عرشه

نداء الأموات للأحياء

وكان الأشراف ينقشون هذا الدعاء وأمثاله على قبورهم حيث يدعو الموتى من يمرون بالقبر من الأحياء إلى تقديم القربان أو تلاوة الأدعية إن لم يكن في أيديهم شيء يقربون، كأن ذلك نوع من طلب الرحمة أو قراءة الفاتحة عندنا، وكان الموتى كذلك يحذرون الأحياء من أن ينتهكوا حرمة القبر أو يخربوه:

"يا أيها الأحياء فوق الأرض، يا من ترمون بهذا الضريح، هل تحبون أن يرضى عنكم المليك وأن تكونوا من المقربين عند الإله العظيم، إذن قولوا ألف رغيف وألف قدر من جعة للمقرب نخبو، ولا تخربوا في الضريح شيئاً لأني روح مكرم، وما من رجل يهدم شيئاً من ذلك الضريح إلا احتكمت منه إلى الإله العظيم، فإني لم أكن أقول إلا الخير وما من مرة قلت فيها السوء عن إنسان.

الحكم والمواعظ

أقدم ما وصل إلينا من تلك الحكم وأشهرها ما روي عن حكيم الأسرة الخامسة ووزيرها في عهد الملك إسيسي، فقد استشعر الوزير

---

(٣) يريدون أن الملك سوف يرضى الإله كالأقزام التي كان المصريون يجلبونها من السودان شغفاً بما كانت تؤدي من رقص يبعث السرور والرضا إلى نفوسهم.

اقتراب النهاية وقد تقدمت به السن ووهن العظم منه، فتقدم إلى مليكه مستأذناً في أن يزود ولده ببعض ما كسب من تجارب في عمره الطويل فأذن له الملك، فإذا هو يقدم بين يدي حكمته ذلك الوصف الرائع لما تنزله الشيخوخة بالمرء:

"إن الوهن يحل به كل يوم، والبصر يكل، والأذنين تصابان بالصمم، والقوة تهن والقلب لا يستريح... والذكاء يخبو، وإنه لمن العسير أن يتذكر اليوم ما كان بالأمس، والعظام تنوء بالآلام....

النصائح:

لا تتكبر بعلمك، تحدث إلى الجاهل والعالم[٤].

آدب المائدة:

إذا كنت في جماعة جلست إلى الطعام في بيت رجل أكبر منك، فتناول ما يعطيك وضعه بين يديك، وانظر (فقط) إلى ما أمامك[٥]..... ولا تقاطعه بالحديث فما يدري امرؤ متى يغضب، اضحك إذا ضحك، يسر ذلك قلبه.. تحدث إذا خوطبت حتى يقبل كلامك.

العمل:

كن مجتهداً دائماً، وزد على ما تؤمر به من العمل، ولا تضع وقتاً لا تعمل فيه، فإنه ممقوت ذلك الذي يسيء استخدام وقته، ولا تفلت فرصة

(٤) يذكرنا بقول الرسول (صلى الله عليه وسلم): أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم.

(٥) إذا جلست تأكل مع متسلط فتأمل ما خو أمامك تأملاً – سفر الأمثال ٢٣: ١.

يوماً في زيادة ثروة بيتك، فإن العمل مجلبة للثراء. ولا يدوم الثراء إذا أهمل العمل.

الزوجة والبيت:

إذا كنت عاقلاً فاجعل لنفسك بيتاً، أحب زوجتك كثيراً، وفر لها الطعام والثياب لظهرها، قدم لها الدهانات والعطور، فإن علاج أعضائها الدهانات، أسعدها ما عشت فإنها حرث مثمر لسيدها[٦]... لا تكن قاسياً في البيت فهي أسهل قياداً بالإقناع من العنف. أرض حاجاتها... فإن ذلك ما سوف يبقيها في بيتها.

آداب السلوك:

كن صموتاً فذلك خير من الثرثرة.. لا تتردد على بيوت الشراء، فلسوف تروي سقطات الفم، وما أسوأ ألا تعرف ما كنت تقول... إن لفظة قد تسقط وأنت تتحدث قد تقلب بيتك.

بر الأم:

لقد أعطيتك لأمك التي حبلت بك، وقد تكبدت في حملك ثقلاً عظيماً وضعته بغير عون مني.. وظلت ثلاثة أعوام ترضعك، فلما أرسلت إلى المدرسة.. كانت تحمل الخبز والنبيذ من بيتها لأستاذك كل يوم... لقد شببت الآن واتخذت لنفسك زوجاً وبيتاً، فارع طفلك ربه كما ربتك أمك، واحذر أن تفعل شيئاً يؤذيها حتى لا ترفع يديها إلى الإله فيسمع شكواها...

---

(٦) نساؤكم حرث لكم (قرآن كريم).

وكم نود أن نسترسل في هذه الحكم الغالية التي ترددت في الأسماع والنفوس قروناً، وما زلنا نجد لها من الأثر ما نحب ونرضى، ولكنها حكمة على كل حال. وهي تتحدث عن نفسها بغير حاجة إلى شرح ولا تأويل.

قصص السحرة

[جلس الملك خوفو يوماً وحوله الأمراء من بنيه يتحدثون إليه ويسمرون معه، وقد طفق كل واحد منهم يروي له قصة من غرائب ما روى عن أسلافه من الملوك والكهان، وهو يستمع إليهم قرير العين منشرح الصدر].

.... ثم وقف الأمير خفرع ليتكلم فقال: سأروي لجلالتك معجزة وقعت في زمان أبيك نبكا يوم ذهب إلى معبد بتاح رب عنخ تاوي (منف) فإنه زار كذلك رئيس المقرئين أوبا أونر، وكان لذلك الكاهن زوجة تحب مدنياً ظلت على اتصال به عن طريق وصيفة لها... فأرسلت إليه يوماً صندوقاً حافلاً بالثياب ودعته لزيارتها. فأقبل مع الوصيفة... ومضت أيام عدة على ذلك، وكان هناك جوسق عند البحيرة في حديقة أوبا أونر فقال المدني لزوجة أوبا أونر: انظري، إن هناك جوسقاً في حديقة أوبا أونر، فلننفق وقتنا هناك، فأرسلت زوجة أوبا أونر إلى ناظر البيت الذي يشرف على الحديقة تقول أعد الجوسق الذي في الحديقة.. وكان أن أنفقت النهار هناك تشرب مع المدني. فلما كان المساء أقبل المدني فنزل في البحيرة والخادمة قائمة على خدمته.

ولما أن أضاءت الأرض وبزغ اليوم التالي ذهب ناظر الحديقة فروى ذلك الأمر لسيده، فقال أوبا أونر: احمل إلي الصندوق المصنوع من

الأبنوس والذهب... ثم إنه صنع تمساحاً من الشمع طوله سبعة قراريط وتلا عليه عزيمة سحرية وقرأ: "من أقبل ليغتسل في بحيرتي فاقبض عليه"، وعندئذ سلمه للخادم وقال له: إذا نزل ذلك المدني في البحيرة كعادته فالق بالتمساح في الماء وراءه فمضى الخادم لسبيله ومعه التمساح.

وأرسلت زوجة أوبا أونر إلى الخادم المشرف على الحديقة تقول: أعد الجوسق الذي في الحديقة فإني آتيه للإقامة فيه، فأعد الجوسق بكل شيء جميل فذهبتا(٧) إليه حيث أنفقتا يوماً مرحاً، ولما كان المساء ونزل المدني كعادته، ألقى الخادم بالتمساح الشمع في الماء، فتحول إلى تمساح طوله سبعة أذرع وقبض على المدني.

وظل أوبا أونر مع الملك سبعة أيام والمدني أثناء ذلك تحت الماء لا يتنفس، فلما مضت الأيام السبعة وهم الملك نبكا بالعودة قال له رئيس المقرئين: هل لجلالتك أن تأتي لترى المعجزة التي حدثت في عهد جلالتك، فذهب معه الملك.

ونادى أوبا أونر على التمساح قائلاً: احمل المدني إلينا، فخرج التمساح يحمله فقال جلالة الملك: معذرة ولكن هذا التمساح مخيف، عندئذ انحنى أوبا أونر فأخذه فإذا هو تمساح من الشمع في يده، ثم روى رئيس المقرئين لجلالة الملك نبكا ذلك الشيء الذي فعله المدني مع زوجته، فقال جلالته للتمساح خذ ما لك. فنزل التمساح إلى أعماق البحيرة ولم يعرف أحد أين ذهب.

---

(٧) أي زوج الكاهن ووصيفتها.

وأمر جلالة الملك نبكا فأخذت الزوجة إلى ميدان شمالي القصر فأحرقت وألقي رمادها في النهر.

تلك معجزة وقعت في عهد أبيك نبكا من أعمال رئيس المقرئين أوبا أونر فقال جلالة الملك خوفو: فليقرب للملك نبكا ألف رغيف من الخبز ومائة جرة من جعة وثور وكيلان من بخور، وليقرب إلى رئيس المقرئين أوبا أونر كعكة وإبريق من جعة وقطعة كبيرة من اللحم وكيل من بخور فقد رأيت مثلاً من علمه. فنفذ كل ما أمر به.

ثم وقف الأمير با – وفرع ليتكلم فقال: سأروي لجلالتك معجزة وقعت في عهد أبيك سنفرو من أعمال رئيس المقرئين جاجام عنخ. فقد أحس الملك سنفرو في نفسه الكآبة يوماً، فكان أن جمع إليه ضباط قصره ليجد مسلاة فلم يجد شيئاً. فقال، اذهبوا فأتوني برئيس المقرئين الكاتب جاجام عنخ، فأحضر في الحال فقال له جلالته: لقد جمعت ضباط القصر معاً أبحث عن مسلاة فلم أجد، فقال له جاجام عنخ، لو خرجت جلالتك إلى بحيرة القصر زورقاً كل ما فيه من فتيات قصرك لانشرح فؤاد جلالتك عندما تراهن يجدفن جيئة وذهاباً، وعندما تنظر إلى حواشي البحيرة وتشهد حقولها وشطآنها الجميلة، فسوف ينشرح فؤادك منها... قال الملك فأعد لي عشرين مجدافاً مصفحة بالذهب.. واستحضر عشرين امرأة لهن أجمل الجوارح والصدور مجدولات الشعر ممن لم يلدن من قبل، كذلك فأتني بعشرين شبكة فأعطها لهؤلاء النسوة بدلاً من ثيابهن، فنفذ كل ما أمر به الملك.

وطفقن يجدفن حتى انشرح صدر جلالته عندما شاهدهن كيف يجدفن.

ولكن إحدى رئيساتهن انشغلت بجدائل شعرها فسقطت (حلية لها في شكل) سمكة من الفيروزج الجديد في الماء فسكتت وتوقفت عن التجديف فسكت الصف الذي كانت على رأسه وتوقفن عن التجديف، فقال جلالته ألا تجدفن إذن!؟ فقلن: لقد سكتت رئيستنا فهي لا تجدف، فقال جلالته لها: لم لا تجدفين؟ فقالت إن سمكة الفيروزج الجديد قد سقطت في الماء. فقال لها جلالته جدفي وسوف أعوضك عنها، فأجابت بل أحب إلي ما عوني على مثيله، عندئذ قال جلالته، اذهبوا فائتوني برئيس المقرئين جاجام عنخ فجاء في الحال.

فقال جلالته: جاجام عنخ أخي، لقد فعلت كما قلت لي فانشرح قلب جلالتي عند رؤيتهن وهن يجدفن، ولكن حلية في شكل السمكة من الفيروزج الجديد لإحدى الرئيسات سقطت في الماء فسكتت وكفت عن التجديف، كما أشاعت الاضطراب في فريقها.. وقالت أحب إلى ما عوني من مثيله.

وعندئذ قرأ رئيس المقرئين عزائمه السحرية فطوى نصف ماء البحيرة على النصف الآخر، ووجد حلية السمكة على قطعة من الفخار فالتقطها وسلمها لصاحبتها. أما الماء فكان عمقه اثنى عشر قدماً ثم صار أربعة وعشرين بعد طيه، ثم تلا عزائمه السحرية وأعاد المياه إلى مكانها. وأنفق جلالته اليوم في مرح مع أهل القصر جميعاً، وكافأ رئيس المقرئين جاجام عنخ بطل شيء طيب.

ثم وقف الأمير حرجدف ليتكلم فقال: إنما سمعت أمثلة مما عرفوا أنه حدث قبلنا، وما يدري أحد الحق من الباطل ولكن هناك ساحراً في عهدك هذا: فقال جلالته من هو يا حرجدف يا بني؟ فقال الأمير حرجدف؛ إنه مدني يدعي جدي ويقيم في جد سنفرو، وهو مدني بلغ من العمر ١١٠ عام ويأكل خمسمائة رغيف من الخبز، ومن اللحم فخذ ثور ويشرب مائة إبريق من الجعة حتى اليوم، ويعرف كيف يلحم رأساً مقطوعاً ويعرف كيف يحمل الأسد على أن يتبعه مجرراً خطامه على الأرض، ويعرف عدد مغاليق مصلى تحوت.

وكان جلالة الملك خوفو يومئذ دائم البحث عن مغاليق مصلى تحوت ابضه لنفسه مثلها في أفقه (هرمه) فقال جلالته: أنت بنفسك يا حرجدف يا بني تحضره إلي؛ فأعدت السفن للأمير حرجدف حيث صعد في النهر حتى جد سنفرو. فلما رست السفينة إلى الشاطئ واصل مسيره براً حيث جلس في محفة من الأبنوس قوائمها من خشب "سسنم" مطعم بالذهب.

ولما وصل إلى جدي وضعت المحفة ووقف ليسلم عليه حيث وجده مضطجعاً على حصير عند عتبة بيته، وقد وقف خادم يمسح رأسه وآخر يدلك قدميه، فقال له الأمير حرجدف: إن حالك كحياتك قبل الطعن في السن وقبل الشيخوخة، حيث الرحيل وحيث الكفن وحيث الدفن، وما زلت تنام حتى الضحى بريئاً من الداء بغير بلوغ أرذل العمر، التحيات أيها الوقور لقد أقبلت هنا أدعوك برسالة من والدي خوفو أن تأكل أطايب ما

يعطي الملك من طعام لمن هم في خدمته، حتى يبلغك بعد حياة طيبة إلى آبائك الذين هم في عالم الأموات. فقال جدي: سلاماً سلاماً يا حرجدف، أنت ابن الملك حبيب أبيه. ثم بسط الأمير إليه يده فعاونه على النهوض، ثم سار به إلى ضفة النهر وقد أعطاه يده أثناء ذلك. ثم قال جدي: مر بسفينة تعطي لي أحمل فيها الأولاد وكتبي معي فوضعت سفينتان برجالهما تحت تصرفه، ولكن جدي أبحر في السفينة التي فيها حرجدف.

ولما وصل إلى القصر دخل الأمير حرجدف ليخبر جلالة الملك خوفو فقال الأمير حرجدف: مولاي الملك، لقد أحضرت جدي. فقال جلالته: اذهب فاحضره لي وذهب إلى قاعة العمد في قصره حيث أحضر جدي إليه فقال جلالته. كيف كان ذلك يا جدي أني لم أرك قط من قبل؟! فقال جدي: من دعي فليجب، لقد دعاني العاهل وها قد أتيت، فقال الملك: أحقاً ما يقال من أنك تلحم رأساً قطعت؟ فقال جدي: نعم أستطيع يا مولاي الملك فقال الملك، ائتوني بسجين من السجن حتى توقع عليه عقوبته فقال جدي: ولكن على غير رجل يا مولاي. أليس من الخير أن يؤدي ذلك على الماشية السامية؟ فأحضرت إليه إوزة قطع رأسها ثم وضعت الإوزة في الجانب الغربي من القاعة ورأسها في الجانب الشرقي من القاعة ثم قرأ جدي عزائمه السحرية فقامت الأوزة تصيح ورأسها كذلك، فلما مس أحد جزأيها الآخر قامت تصيح، ثم أحضرت بطة ففعل بها مثل ذلك. ثم أمر جلالته فأحضر له ثور فأسقطت رأسه في الأرض وتلا جدي عزائمه السحرية فقام الثور وراءه وقد سقط خطامه في الأرض.

ثم قال الملك خوفو لقد قيل إنك تعرف عدد مغاليق مصلى تحوت، فقال جدي، "فذلك يسرك إذن؟! إنني لا أعرف عددها يا مولاي الملك، ولكني أعرف مكانها، فقال جلالته: فأين ذلك؟ فقال جدي: هناك صندوق من الصوان في الغرفة التي تسمى "الإحصاء" في عين شمس، أنظر، إنها في هذا الصندوق، ثم قال جدي: مولاي الملك أنظر، ولست أنا بالذي يحضرها لك فقال جلالته: فمن إذن يحضرها إلي فقال جدي: أكبر الأطفال الذين هم في رحم ردجدت هو الذي يحضرها لك، فقال جلالته، ولكني أحب أن تقول من تكون ردجدت هذه، فقال جدي: هي زوجة كاهن رع رب سخبو وقد حملت بثلاثة أطفال من رعب رب سخبو وقد قال إنهم سوق يتولون هذه الوظيفة الممتازة(٨) في الأرض كلها، وسوف يكون أكبرهم الكاهن الأعلى في عين شمس، فحزن قلب جلالته لذلك، فقال جدي عفواً ما هذا المزاج يا مولاي الملك. أمن أجل الأطفال الثلاثة؟ ولكني أقول لك: ابنك ثم ابنه ثم واحد من هؤلاء فقال جلالته: متى تلد ردجدت هذه.

- سوف تلك في اليوم الخامس عشر من أول أشهر الشتاء.

ثم نهض جلالته إلى قصره وقال: تعطي الأوامر بأن يستضاف جدي في بيت الأمير حرجدف وأن يقيم معه وأن يرتب عطاؤه بألف رغيف من خبز ومائة إبريق من جعة وثور ومائة حزمة من ثوم" ونفذ كل ما أمر به جلالته.

---

(٨) أي الملك.

وفي يوم من هذه الأيام حدث أن أحست ردجدت بآلام المخاض فقال جلالة رع رب سخبو لإيزيس ونفتيس ومسخنت وحقت وخنوم، انهضن فاذهبن لمساعدة ردجدت على الأطفال الذين هم في رحمها؛ أولئك الذين يتولون هذه الوظيفة الممتازة في هذه الأرض كلها، ولسوف يبنون معابدكم ويزودون مذابحكم بالقرابين ويملأون موائد شرابكم ويزيدون قرابينكم.

وذهب الآلهات بعد أن اتخذن هيئة الراقصات ومعهن خنوم يحمل المحفة، وأقبلن على بيت رع وسر (زوج ردجدت) فوجدنه واقفاً متهدل الثياب فقدمن إليه قلائدهن ودفوفهن فقال لهن: سيداتي إن هنا سيدة في المخاض فقلن: دعنا نراها فنحن نحسن التوليد. فقال لهن: تعالين، فدخلن على ردجدت وأغلقن عليهن باب الحجرة وجلست إيزيس أمامها ونفتيس وراءها وأسعفت مسخنت الولادة (وتمخضت المرأة عن ثلاثة ذكور متوجين عليهم أمارات الملك فغسلنهم وقطعن حبال سرتهم وقال مسخنت لكل واحد منهم ملك يتولى الملك في كل البلاد)، ثم خرجن من عند ردجدت فبشرن رع وسر الذي شكرهن وكافأهن بمقدار من شعير حمله عنهن خنوم.

فلما مضين لسبيلهن من حيث أتين، قالت إيزيس لهذه الآلهة: ماذا يعني مجيئنا إليها ولم نأت بمعجزة لهؤلاء الأطفال حتى نحدث أباهن الذي أرسلنا؛ ثم إنهن وضعن ثلاثة أكاليل وضعنها في الشعير، ثم أثرن العواصف والأمطار أن تأتي في السماء وعدن إلى البيت فقلن: نرجو منكم أن تدعونا

نضع الشعير هنا في حجرة مغلقة حتى نعود، ووضعن الشعير في حجرة مغلقة.

ولما تطهرت ردجدت طهور الأيام الأربعة عشر قالت لخادمتها: هل أعد البيت فقالت: لقد أعد بكل شيء طيب فيما عدا الأواني التي لا سبيل لإحضارها فقال ردجدت، ولم لا يمكن إحضارها؟ فقالت الخادمة، لا شيء يمكن عمله من أجل شعير الراقصات وهو في حجرة مغلقة بخاتمهن. فقالت ردجدت: اذهبي فائتني بشيء منه وسوف يعوضهن رع وسر عند عودته.

وذهبت الخادمة ففتحت الحجرة، فكان أن سمعت في الحجرة غناء وموسيقا ورقصاً، وكل ذلك مما يكون تمجيداً للملك. فذهبت فحدثت ردجدت بكل ما سمعت، فطافت هذه في الحجرة ولكنها لم تجد مكان هذا الذي يحدث، فوضعت جبينها على الوعاء فوجدت أنه فها، فوضعته في صندوق ربطته بجلد ووضعته في غرفة تحوي أوانيها وأغلقت عليها، فلما عاد رع وسر من الحقل حدثته بذلك الأمر، فسر سروراً عظيماً وجلسا منشرحين.

ومرت أيام عديدة على ذلك، وكان أن غضبت ردجدت على خادمتها لأمر من الأمور فعاقبتها بضربها، فقالت الخادمة لمن في البيت من الناس. لقد ولدت ثلاثة ملوك، لأذهبن فأخبر جلالة الملك خوفو بذلك، وكان أن ذهبت حيث أخوها لأمها يعقد خيوط الكتان في الجرين فقال لها أين تذهبين أيتها الفتاة الصغيرة فحدثته بالأمر فقال لها أخوها أتراك أتيت إلى لأشترك في الخيانة، ثم تناول جديلة من الكتان فأصابها بضربة شديدة.

ثم كان أن ذهبت تغترف لنفسها حفنة من ماء فأمسكها تمساح. وذهب أخوها ليحدث ردجدت بذلك فوجدها جالسة ورأسها على ركبتها مثقلة الفؤاد جداً؛ فقال لها: سيدتي؛ لماذا تبدين هذا المزاج، فأجابت: إنها تلك الصغيرة التي تربت في البيت؛ انظر، لقد ذهبت تقول: سأكشف السر، وعندئذ مال برأسه وقال: سيدتي لقد جاءت إلي تحدثني... فضربتها ثم ذهبت تغترف لنفسها قليلاً من الماء فأخذها التمساح.

وبعد، فهذه قصص ثلاث بقيت لنا من بردية وستكار. وهي تكاد تشبه في تعاقبها واحدة من بعد الأخرى قصص ألف ليلة وليلة، ولقد رويت هذه القصص على ألسنة الأمراء من أبناء خوفو في سمرهم معه، كل أمير يروي معجزة من حديث الأولين، وما ندري لعل البردية لو كانت وصلت إلينا سليمة لقدمت إلينا تسع قصص يرويها أبناؤه التسعة.

على أن القصص وإن بدت في ظاهرها عديمة الارتباط بين بعضها وبعض، فهي في واقع الأمر تمهيد مدبر على جانب من ذكاء ودهاء للقصة الأخيرة، وما أريد لها من هدف الدعاية والتبشير لملوك الأسرة الخامسة من عباد رع، بحيث يعلن خوفو بزوال ملكه وانحسار دولته في وجهه وفي عقر داره، مع حمله على التسليم بالقضاء بتخفيف وقعه عليه فيقول له الساحر "ابنك ثم ابنه ثم واحد من هؤلاء"، وهو إنما يصدر حكمه بهذه الكلمات عليه بانقضاء دولته وانتهاء عقبه.

وتبلغ روعة التصوير ذروتها في ذلك الحوار الماهر الذي ساق القصة بيين الملك والساحر وما فيه من تصوير حي لقلق الملك العميق ولهفته في

السؤال وحرصه على الرد، وهو حوار نستطيع مطمئنين أن ننقله بنصه في مسرحية من مسرحياتنا الحديثة دون ما تغيير ولا تبديل. فلا ينبو عن أذواقنا ولا يقصر في التشويق والتأثير.

على أن القصص التي حفظت لنا إنما تدور حول السحر والسحارين، حيث يخرج الناس فيها من عالم الواقع إلى عالم الخيال، وذلك مما يبين لنا حب المصريين لقصص السحر وخوارق الأعمال، وما نسبوه إلى خوفو من حبه السحر وإقباله عليه. ويصور لنا كذلك ما تعلقت به أوهام الناس في العصور القديمة من خيالات يحققها السحر ويعين عليها. فاستحالة الجماد إلى كائن حي وتماسك الماء تماسكاً يمكن من طيه أو شقه ثم إحياء الميت أو جمع أعضائه المتفرقة، كل ذلك مما تعلقت به أوهام الناس في القديم.

على أن ما روي من الخوارق في هذه القصص إنما يذكرنا بما نزل على الأنبياء من الخوارق والمعجزات. فدمية التمساح التي استحالت إلى تمساح عظيم أرهب الملك فلما التقطه أوبا أونر عاد سيرته الأولى، إنما تشبه عصا موسى. "فالقاها فإذا هي حية تسعى، قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى"(٩) وقد أقبل موسى يتحدى المصريين الذين اشتهروا بهذا "فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى" وتشبه كذلك ما قيل على لسان المسيح "واخلق لكم من الطين كهيئة الطير ثم أنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله" كما يذكرنا التمساح وقد غاص بالفتى المدني سبعة أيام لا يتنفس بقصة يونس

---

(٩) انظر كذلك: سفر الخروج أصحاح ٤ آية ٢.

وقد التقمه الحوف فلبث في بطنه ثلاثة أيام وثلاث ليال(١٠).

ثم نمضي إلى القصة الثانية من قصص ولد خوفو فنجد فيها كيف شق الماء وتراكم بعضه على بعض، حتى ظهر قاع البحيرة مما يذكرنا بخروج بني إسرائيل، "فأوحينا إلى موسى أن أضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم"(١١) .

وأما قصة جدي وإعادته الرأس المفصول إلى الأوزة والثور فلا شك تذكرنا بقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا}(١٢) .

كما تشبه القصة الأخيرة وما كان من حرص ردجدت على إخفاء مواليدها الثلاثة عن الملك خوفو قصة مولد موسى وحرص أمه على إخفائه عن فرعون، وتشبه مولد المسيح والخوف عليه من هيرودس الملك.

وبعد، فلعلنا بدراستنا للأدب المصري ندرك الحكمة من نزول المعجزة بالصورة التي نزلت بها، فما كانت لتنزل إلا في أمر من واقع حياة الناس وما يدور بأذهانهم فتكون محققة في أعينهم لشيء طالما فكروا فيه وسمروا به وتخيلوه.

---

(١٠) سورة الصافات آيات ١٣٩ – ١٤٥ وكذلك سفر يونان أصحاح ١ – ١٧ وسورة الشعراء آية ٦٢.

(١١) كذلك سفر الخروج ١٤ عدد ٢٢.

(١٢) سورة البقرة. .

العصر الذهبي للأدب

١- أواخر الدولة القديمة وعصر الانتقال الأول.

٢- الدولة الوسطى وعصر الانتقال الثاني.

أحاديث أيبوور

إن الرجل ليذهب إلى حرثه ودرعه معه، أنظر، لقد شحبت الوجوه وأصبح الرماة متحفزين في كل مكان، لقد انعدم رجل الأمس، ولكن اللصوص في كل مكان، إن النيل ليفيض ولا من يحرث، وكل امرئ يقول إننا لا ندري ماذا نزل بالبلاد. ولقد عقمت النساء فهن لا يحملن، وأصبح الكثير من الموتى يدفنون في النهر، والقنوات قبور، وأصبح العظيم مفعماً بالأحزان والفقير مفعماً بالأفراح.. ويقول أهل كل مدينة دعنا نطرد الأقوياء من بيننا، أنظر إن الصروح والأساطين والجدران قد نسقت بالحرائق.. ودمرت المدن وأصبح الصعيد مقفراً. وزحفت الصحراء على البلاد.

أنظر، وإن الأحمق ليقول: لو أني عرفت أين الإله لقدمت له القرابين. لقد أصبحت الوقاحة في الناس جميعاً وإن الرجل ليقتل أخاه.

ألا ليتني رفعت صوتي من قبل. إذن لتجنبت الآلام التي أنا فيها الآن أنظر، إن الكبير والصغير يقول: يا ليتني مت، والأطفال يقولون ما كان ينبغي أن نخرج إلى الحياة.

كاره الحياة وحواره مع روحه

وهذا حوار بين رجل سئم الحياة وفكر في الانتحار، وبين روحه التي تزين له البقاء، إنه السؤال الأبدي في معنى الحياة، وهو نفس السؤال الذي طرحه شكسبير في رواية هملت "وجود أو لا وجود":

أنظر، إن اسمي مقيت.

أنظر، أمقت من رائحة الطير.

في يوم صيف والسماء لافحة.

أنظر، إن اسمي مقيت

أنظر أمقت من اسم الزوجة

حين تتهم بالإفك عند زوجها

لمن أتحدث اليوم

والإخوان أشرار

وأصدقاء اليوم لا يستأهلون الحب

لمن أتحدث اليوم

وقد نؤت بالشقاء

وقد عز الصديق الحميم

لمن أتحدث اليوم

والشر الذي نزل بالبلاد

لا آخر له

إن الموت أمامي اليوم

كالشفاء الذي يعود إلى المريض

وكالمشي في الخارج بعد المرض

إن الموت أمامي اليوم

كعبير زهور اللوتس

وكجلوس المرء على شاطئ النشوة

إن الموت أمامي اليوم

كالطريق المعبد

وعودة الرجل من القتال إلى مثواه

إن الموت أمامي اليوم

كحنين المرء لرؤية بنيه

وقد أنفق السنين في الأسر

وهذا ما قالت روحي:

الق عنك هذا الحزن أيها الأخ الزميل

إنني باقية هنا إن انصرفت عن الغرب [١٣]

أما إذا انتهيت إلى الغرب فرقدت في الأرض

فسوف أهبط حيث تستقر

وليكن لنا مستقر واحد

الدعوة إلى المرح في الدنيا

وهذه أغنية من أشهر أغاني الدولة الوسطى نقشت في قبر الملك اينتف أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة وتعرف باسم أغنية العازف على الجنك:

تذهب أمم وتحل أمم

منذ عهد الذين كانوا قبلنا

إن الأرباب الغابرين يستقرون في أهراماتهم.

وكذلك الأشراف والمقربون

دفنوا في أهراماتهم

إن هؤلاء الذين ابتنوا الديار

إذا ديارهم كأن لم تكن

أنظر ماذا نزل بها

(١٣) هي الجبانة ويكني بذلك عن الموت.

لقد سمعت قول إيمحتب وحرجدف

أولئك الذين يتحدث الناس بكلامهم

أين ديارهم الآن

لقد تهدمت حوائطهم

وانعدمت ديارهم

كأنها لم تكن

أن أحداً لا يأتي من هناك

ليحدثنا بحالهم

ويخبرنا بحاجاتهم

ويرد قلوبنا إلى الراحة

حتى نذهب حيث ذهبوا

افرح حتى تنسى قلبك

أن الناس سوف يترحمون عليك

وزد ما عندك من مسرات

ولا تدع قلبك يبتئس

وافعل ما يحلو لك في الأرض

حتى يأتيك يوم النحيب

فإن ساكن القلب [١٤] لا يسمع العويل

ولا ينقذ الصراخ إنساناً من عالم الأموات

النصائح الموجهة إلى الملك مريكارع من أبيه

وصلت هذه التعاليم إلينا على بردية كتبت في عهد الأسرة الثامنة عشرة ولكن علماء اللغة المصرية القديمة لا يترددون في إرجاعها إلى تاريخ سابق ونسبتها إلى ملك من ملوك إهناس في عصر الفوضى الأول في أعقاب الدولة القديمة. وكانت مصر يومئذ ميداناً لحروب متصلة بين حكام الأقاليم بعضهم وبعض، حتى قام ملوك الأسرة الحادية عشرة في طيبة فبسطوا سلطانهم على أقاليم مصر جميعاً.

وأبرز ما في هذه التعاليم ما فيها من النصائح السياسية التي يوجهها ملك إلى ولده وولي عهده، حيث يبين له فيها من سياسة الحكم وما ينبغي أن يتبعه الملك من القسوة والعنف تارة، ومن الرفق واللين تارة أخرى، وذلك مع حسن سياسة الجماهير والتأثير فيهم بحسن الخطاب، على أن يتزود الحاكم بما في الكتب من العلم وأن يتمثل بالسلف الصالح:

معاملة الثوار:

أما من كثر أتباعه، وحسن في عيون العبيد، وكثر كلامه فنصيحة الملك هي أن: اقض عليه واقتله وامح اسمه. اقتلع ذكراه وذكرى أتباعه الذين يحبونه، فإن سبب متاعب المواطنين الرجل المشاغب.

---

(١٤) ساكن القلب من ألقاب أوزيريس رب الموتى.

فإذا وجدت المواطنين يلوذون به.. فاستدعه أمام رجال الحاشية ثم اقض عليه فهو عدو كذلك.

البلاغة والحكمة:

كن ماهراً في الخطاب حتى تسود فإن القوة في اللسان والخطاب أقوى من كل قتال.

اقتد بآبائك الذين ذهبوا من قبلك.. أنظر إن كلامهم (الحكيم) باق في الكتب، فافتح واقرأ واقتد بالعلم، بذلك يكون الصانع كذلك حكيماً[١٥].

السماحة واللين:

لا تكن فظاً، فمن الخير أن تكون شفيقاً.

وخلد آثارك بأن تكون محبوباً.

يحمد الناس الرب من أجلك ويشكروا إحسانك.

ويدعوا لك بالصحة.

مجد العظيم واسعد شعبك.

ومن الخير أن تعمل للمستقبل.

---

(١٥) وذلك أن الصانع إذا ما فتح الكتب فقرأها واقتدى بما فيها من الحكمة صار حكيماً، فليس العلم وقفاً على طائفة من الناس، ولكنهم جميعاً أهل لأن يكتسبوا الحكمة إذا طلبوها، ولو كانوا من العاملين والصناع، ولا شك أن في قول الملك بذلك ديمقراطية بلغت مستوى رفيعاً في ذلك العهد القديم.

الموظفون:

وسع على مستشاريك حتى ينفذوا قوانينك فالغني في بيته لا يتحيز، وصاحب المال لا يحتاج لشيء، إذ الفقير لا يتكلم بالحق، والقائل "يا ليت لي" لا يعدل فإنه يحابي من يؤدي إليه العطايا.

إن العظيم من كان له المستشارون العظام

والملك القوي من كانت له حاشية

قل الحق في بيتك حتى يخشاك النبلاء أصحاب السلطان

فالأمور تتيسر مع السيد ذي القلب السليم

وإن دخيلة البيت هي التي تشيع الرهبة خارجه (١٦).

سلوك الملك:

افعل الخير ما دمت في الأرض حياً.

هدئ الباكي ولا تظلم أرملة ولا تخرج رجلاً من ملك أبيه.

ولا تهن الحكام احتراماً لمناصبهم، واحذر أن تعاقب ظلماً.

ولا تقتل من لا ينفعك، وليكن عقابك (فقط) الضرب والسجن.

ولا تقتل رجلاً تعرف فضائله.

---

(١٦) أي أن سلوك الإنسان في بيته يبعث على احترامه خارجه.

التحذير من الحساب بعد الموت:

أما القضاة الذين يحكمون للمظلومين، فأنت تعرف أنهم لن يكونوا رحماء في ذلك اليوم، حينما يقضون للبائسين ساعة تنفيذ الأحكام.

إنه الشقاء إذا كان المدعي هو الحكيم (١٧).

لا تعتمد على تطاول السنين، فإنهم يرون العمر ساعة (١٨).

وأن الإنسان ليبقى بعد الموت حيث توضع أعماله إلى جانبه أكواماً وإن الإنسان ليبقى هناك أبداً.

وإنه لأحمق من يستخف بهم (١٩).

أما من يأتيهم بغير ذنب فسوف يحيا كإله حيث يخطو في جأش كأرباب الأبدية.

لا ترفع ابن عظيم على من كان ذا مولد وضيع.

ولكن خذ لنفسك الرجل لفضائله.

احم حدودك وقد قلاعك حتى تكون الجيوش في خدمة قائدها.

هيء الآثار للإله فهي تحيى اسم بانيها.

---

(١٧) مقصود بالحكيم هنا الإله جحوتي (تحوت) رب الحكمة.

(١٨) لا تظن أن يوم الحساب بعيد وأن أعمال الإنسان تهمل بعد طول السنين.

(١٩) أي بالقضاة في الآخرة.

وعلى المرء أن يفعل ما يفيد روحه، وذلك بأداء شعائر الطهور الشهرية ولبس النعال البيضاء وزيارة المعابد وكشف الأسرار ودخول قدس الأقداس وأكل خبز المعبد.

تعاليم الملك أمنمحات لابنه سنوسرت

دل ما عثر لهذه التعاليم من نسخ متعددة وفقرات كتبها التلاميذ، على ما كان لهذه القطعة الأدبية في نفوس المصريين من الإعجاب والتقدير حتى الدولة الحديثة.

وكان أمنمحات الأول، رأس الأسرة الثانية عشرة، قد تعرض للقتل غيلة، وذلك بعد عشرين سنة من الكفاح والجهاد في سبيل رقي البلاد ورفعة شأنها، فتأثرت نفسه لما وجد من جحود الناس وكفرهم بالنعمة ونكرانهم للجميل ففقد الثقة بهم. ثم كان أن أشرك ابنه معه واعتزل الحياة السياسية أو كاد، وإذا بالملك للشيخ يحدث ابنه بما وقع له ثم ينصح له ويبصره.

أما وقد أشرقت ربا فاستمع لما أقول لك.

حتى تكون ملكاً للأرض وتحكم الضفتين وتفعل الخير.

كن على حذر من الأتباع، ولا تقترب منهم ولا تكن وحدك.

ولا تثق في أخ، ولا تعرف صديقاً.

ولا تقرب إليك أحداً فذلك لا يفيد في شيء.

فإذا غفوت فاحرس قلبك بنفسك.

فإنك عند الشدائد لا تجد الصديق.

لقد أعطيت الفقير وغذوت اليتيم.

وأتحت لمن لم يكن شيئاً أن يصل إلى هدفه.

كالذي كان ذا منزلة.

فكان الذي طعم خبزي هو الذي غدر بي.

وكان الذي بسطت له يدي هو الذي أثار المخاوف مع ذلك.

وإذا بالذين كسوتهم بفاخر الكتان ينظرون إلي نظرهم إلى ظل

لقد كان شخصي بين الأحياء وأسهمي في الناس من (العطايا)

ومع ذلك فقد دبروا علي المؤامرة دون أن تسمع

والخلاف الكبير دون أن يرى

واقتتل الناس حيث تقتتل الفحول

ونسوا ما كان بالأمس (من أفضالي)

إن الحظ لا يخدم من لا يعلم، حيث ينبغي أن يعلم.

قصة المؤامرة:

لقد كان بعد العشاء حين أقبل الليل

وقد استسلمت لساعة من راحة

ورقدت في فراشي وقد كنت منهكاً.

وقد تداعى فؤادي للهجوع
فإذا الأسلحة كأنها سلمت وكأنما كنت مطلوباً.
فانبعثت كأفعى الصحراء ونهضت أقاتل وحدي
ووجدت أنه القتال يداً بيد مع حرسي
حين أسرعت فالتقطت سلاحي ورددت الأوغاد
غير أنه لا قوة في الليل ولا يستطيع المرء وحده قتالاً.
ولن يأتي النجاح بغيرك تحميني
أنظر، لقد حدث الشيء البغيض حينما كنت بدونك
ولم يكن القصر قد سمع أني قد تخيلت لك
ولما أكن قد سكنت معك حتى أتصرف بمشورتك
أترى النساء دبرن المعركة، وهل دبر الاغتيال في البيت
هل خدع أهل المدينة بأفعالهم
إن الحظ السيء لم يتعقبني منذ ولدت
ولم يوجد من يعدلني سباقاً للفضائل
لقد جست خلال سهيل وتجولت في الدلتا
ووقفت على تخوم البلاد وجمعت حدودها
ودفعت حدود سلطاني بقوتي وتفوقي

لقد كنت منتج الشعير وأحببت نبري [٢٠] وحياني النيل

فلم يجع أحد في عهدي ولم يظمأ أحد إبانه

وعاش الناس فيما بسطت ولهجوا بذكري

قصة الفلاح الفصيح

حظيت هذه القصة أو هذه المقامة بكثير من الذيوع والانتشار أيام الدولة الوسطى، حيث ازدهر الأدب وأقبل الناس عليه يتذوقونه ويعجبون به. يدل على ذلك ما عثر لهذه القصة من نسخ ترجع إلى هذا العصر دون سواه. ولعل الناس فيما يظهر قد انصرفوا عنها أيام الدولة الحديثة فلم يقبلوا عليها، ويرجع ذلك إلى أن الناس في الدولة الحديثة قد انصرفوا عن الأدب التقليدي وما فيه من حسن السبك وجمال العبارة والبيان والبديع، فقد كان حسب الناس منذ الدولة الحديثة أدب مرسل سهل العبارة بسيط الأسلوب هو أقرب إلى لغة العامة، فكان إقبالهم يومئذ على مثل تلك الآثار الأدبية إقبال شبابنا اليوم على أدب ابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وابن العميد أو مقامات البديع الهمذاني والحريري.

وأبرز ما نجد في تلك القصة إعجاب الملك بنكاورع ووزيره بفصاحة الفلاح وحرصهما على الاستماع إليه والاستمتاع بما يقول. وكان الملك بنكاورع أمنمحات – فيما يبدو – أديباً يحب الأدب ويكافئ عليه، وآية ذلك ما نرى في هذه القصة من أمره برعاية الفلاح ورزقه ورزق عياله حتى

(٢٠) إله الحصيد .

يفصل في أمره، حتى لكأن بين أيدينا رواية من روايات الخلفاء من بني العباس في بغداد.

ولقد رأى بعض المؤرخين في هذه القصة دليلاً على ما ساد المجتمع المصري يومئذ من الفوضى والاضطراب ولكني إنما أرى فيها – عكس ذلك – دليلاً على رعاية العدل والانتصاف للمظلوم، وآية ذلك إلحاح الفلاح ومثابرته على المطالبة بحقه وشجاعته في تعنيف الحاكم دون خوف أو وجل، وقد كان الفلاح حليقاً أن يجبن لو كان غير ذلك، وما كان لينتصف الحاكم من ظالمه هذا الانتصاف، وإنما أخر إنصافه حرص الملك على الاستزادة من بيانه، وذلك فضلاً عن أن عهد الملك أمنمحات قد عرف بالرخاء والعدل، ولعل الكاتب إنما استوحى قصته تلك مما ساد قبل عهد ملوك هذه الأسرة، أي قبل أن تتخلص مصر من آثار عهد الفوضى والإقطاع، ثم بين بعد ذلك كيف أنصف الفلاح المظلوم في عهد الملك العادل.

القصة

كان هناك رجل يدعى خنوم أنوب، وهو فلاح من وادي النطرون، وكانت له امرأة يقال لها مارية. فقال هذا الفلاح لزوجته هذه: "انظري إنني شاخص إلى مصر كي أجلب المؤونة لأولادي، فانطلقي فاكتالي لي القمح الذي تركته في المخزن، فاكتالتها له فكانت ثمانية مكاييل.

ثم قال هذا الفلاح لامرأته: عندك كيلان طعاماً لك ولأولادك، ولكن اصنعي لي من المكاييل الستة الباقية خبزاً وجعة عن كل يوم أنفقه هناك.

ثم كان أن هبط هذا الفلاح إلى مصر بعد أن حمل حماريه إلى إهناسية حيث وصل منطقة برفيوني شمال مدينيت، وهناك التقى برجل كان واقفاً على ضفة النهر يسمى جحوتي نخت بن رجل يدعى أسرى ممن يعملون في ضياع السمير الأكبر رنسي بن مرو، فقال جحوتي نخت هذا عندما رأى حمير هذا الفلاح وقد راقت لقلبه: "هل من علة تمكنني من غصب ما لهذا الفلاح من مال؟

وكان بيت جحوتي نخت هذا قائماً على ممر ضيق غير عريض لا يجاوز عرض قطعة من الكتان، وكان أحد جانبيه تحت الماء في حقل شعير، فقال جحوتي نخت هذا لخادمه، انطلق فاحضر ملاءة من بيتنا، فلما أحضرت له فرشها على الممر بحيث يقع طرف منها على الماء والآخر على الشعير، فلما أقبل الفلاح من الطريق العام قال جحوتي نخت هذا: احذر أيها الفلاح أن تطأ ثوبي فقال الفلاح: سأفعل ما يسرك فإن طريقي سوي، وانحرف إلى أعلى، فقال جحوتي نخت هذا، تراك تتخذ من شعيري لك طريقاً، فقال الفلاح إن طريقي سوي، فالضفة عالية ولا طريق لي إلا تحت الشعير، ولكنك مع ذلك تسد الطريق بأثوابك، تراك تريد منعنا من المرور على الطريق؟

ولم يكد ينتهي من مقالته حتى ملأ أحد حميره فمه بحزمة من الشعير، فقال جحوتي نخت، انظر لآخذن حمارك أيها الفلاح لأكله شعيري.. فقال هذا الفلاح لقد كان طريقاً سوياً، ولما كان أحد جانبيه مسدوداً فقد سقت حماري على (الجانب الآخر)، أفتغتصبه عندئذ لملئه فمه بحزمة من شعير،

ولكني أعرف رب هذه الضياع، إنها للسمير الكبير رنسي بن مرو، إنه يلجم كل لص في هذه البلاد كلها؛ أم تراني أسرق في ضياعه؟! فقال جحوتي نخت هذا: أليس هو المثل الذي يردده الناس "إنما يذكر اسم الفقير من أجل سيده "إنني أنا الذي يخاطبك على حين تفكر أنت في السمير الكبير ثم تناول غصناً من الأثل الأخضر فانهال به على أعضائه كلها، ثم أخذ حميره وساقها إلى ضيعته.

وبكى هذا الفلاح بكاء مراً لما وقع به من الأذى، فقال جحوتي نخت هذا: لا تجأر بصراخك أيها الفلاح وإلا كان مصيرك مثوى رب الصمت فقال هذا الفلاح أتضربني وتسرق متاعي ثم تريد الآن تنتزع الشكاة من فمي؟! أنت يا رب الصمت رد علي حتى أكف عن ذلك الصياح الذي يزعجك.

ولبث الفلاح عشرة أيام يتوسل إلى جحوتي نخت وهو لا يحفل به، فدخل هذا الفلاح إلى إهناس ليرفع شكايته إلى السمير الكبير رنسي بن مرو، فلقيه خارجاً من باب بيته لينزل إلى زورقه الخاص بقاعة العدل... فقال: أيها السمير الكبير، يا سيدي، يا اعظم العظماء، و يا قائداً على ما كان وما لم يكن، إنك إن تهبط إلى بحيرة العدل فتبحر فيها بريح رخاء، لم يتمزق شراعك ولم يبطئ سفينك ولم ينزل بساريتك مكروه ولم تتكسر مراسيك أو يجرفك التيار، ولم تذق أضرار النهر ولم تر وجهاً عبوساً.

أنت أبو اليتيم وزوج الأيم وأخو المنبوذة ورداء من لا أم له... دعني أجعل لك في هذه الأرض اسماً جديراً بما هو خير من كل شيء، يا قائداً

بغير عيب، و يا عظيماً خالصاً من الدنايا، أنت يا مهلك الباطل ومثبت الحق أنبذ الشر.. ارفع الظلم الذي وقع علي وانظر كيف حملت بالشقاء، وانظر إلى ما بي من الضعف.

وكان هذا الفلاح قد وجه خطابه هذا في عهد الملك نبكاورع المبرأ، فذهب هذا السمير الكبير رنسي بن مرو إلى جلالته فقال: مولاي، لقد عثرت على فلاح من هؤلاء الفلاحين فصيح حقاً، لقد غصب متاعه على يد رجل في خدمتي، انظر، لقد جاء يشكو إلي ذلك، فقال جلالته: إذا أحببت أن تراني بصحة فابقه هنا ولا تجبه إلى ما يقول حتى يواصل كلامه.

ثم مر بأقواله أن تحمل إلينا مكتوبة لنسمعها، على أن نوفر رزق زوجته وأولاده، وأن تسهر كذلك على إمداده بالطعام دون أن يعلم أنك أنت الذي تمنحه إياه، فكان أن أعطى عشرة أرغفة وأبريقين من جعة كل يوم أمده بها السمير الكبير، وكان يعطيها لأحد أصدقائه فيسلمها إليه، كما أرسل السمير الكبير رنسي بن مرو إلى عمدة وادي النطرون ليرتب لزوجة هذا الفلاح مؤونة يومية مقدارها ثلاثة مكاييل:

[وأقبل هذا الفلاح ليرفع مظلمة ثانية فقال]:

"يا أيها السمير الكبير، يا سيدي، يا أعظم العظماء وأغنى الأغنياء. يا من يراك الأغنياء أغناهم. أنت سكان السماء، أنت عماد الأرض، أنت الشاقول الذي يحمل المثقال، أيها السكان لا تتعثر، أيها العماد لا تمل. أيها الشاقول لا تتذبذب.

إلا ماذا عساك تحتاج في بيتك؟ إلى إبريق من جعة وزعفران ثلاثة؟ فماذا أعددت لإرضاء الفقير؟! ألن تكون من رجال الأبدية، أليس خطأ أن يتأرجح الميزان؟! أنظر: لقد ضلت العدالة تحتك فأزيحت عن موضعها. فالموظفون يقترفون الإثم. والأحكام جائرة والقضاة يسرقون. ومن وجب عليه أن يمنح الهواء للتنفس يأخذ الأنفاس. ومن عليه مقاومة الخطأ يقترف هو نفسه الإثم.

أنظر إنك قوي نشيط الذراع جريء القلب. ولكن تجاوزتك الرحمة.

كن الملجأ واجعل مرساك جيداً.

ووجه لسانك للحق ولا تتبع طريق الضلال

ولا تقل زوراً وراقب الحكام

[وعلى هذا النحو يمضي الفلاح في شكواه والحاكم لاه عنه استزادة من بيانه. وكان كلما تباطأ الحاكم عن إنصافه اتبع هو شكواه بأخرى ترق حيناً وتعنف أكثر الأحيان. وقد سئم الحاكم يوماً عن عنف لهجته فأمر فضرب بالسياط فزادت حملة الفلاح عليه وقال]:

إن ابن مرو أعمى عما يرى، أصم عما يسمع، سادر عما يروى له

يا مدينة بغير عميد، وجماعة بغير رئيس

وسفينة بغير ربان، وفريقاً بغير قائد.

أنظر، إنك لص، حاكم يصادر الفلاحين

ورئيس مقاطعة يجب عليه القضاء على النهب

ولكنه يصبح نموذجاً لمرتكبيه

[ثم يعود إلى التوسل فيقول]:

لا تسرق وضيعاً أملاكه ولا ضعيفاً تعرفه.

إن أملاك الفقير أنفاسه، ومن أخذها منه فقد كتم أنفاسه، لقد عينت لتسمع الشكايات وتفصل بين الخصوم وتقضي على اللصوص. لقد وضع الناس فيك ثقتهم، فأصبت معتدياً، وإنما أقمت سداً منيعاً للفقير تحميه من الغرق.

أيها السمير الكبير، مولاي، أقم الحق، أقم الخير، إن زارع الشر يروي آثامه بالشر (ولكن) الحق باق أبداً، وهو ينزل مع فاعله إلى العالم الآخر عندما يدفن ويختلط بالأرض. فلا يمحي اسمه من الأرض ولكنه يذكر لصلاحه. وذلك ما ورد في كلام الله.

إن لسن الرجال موازينهم

لا تحجب وجهك عمن تعرف، ولا تتعام عمن ترى، ولا ترد من يسألك.

[حتى إذا أعيت الفلاح الحيل ختم شكاياته بقوله]:

أنظر. لقد شكوت إليك فلم تسمعني، فأذهب عنك فأشكوك إلى أنوبيس؟! (٢١)

---

(٢١) رب الجبانات.

وأمر السمير رنسي بن مرو اثنين من رجاله أن يذهبا ويعودا به. وخاف الفلاح أن يعاقب على أقواله التي قالها، ولكن رنسي بن مرو قال له: لا تخش شيئاً أيها الفلاح. أنظر، لسوف تسكن معي. أقبل لنسمعك شكاواك: ثم قرئت عليه من قرطاس بردي جديد، كل شكوى بما تحتويه. ثم أمر السمير الكبير رنسي بن مرو. فأرسلت إلى جلالة الملك بنكاورع المبرأ فسر بها الملك أكثر من أي شيء في الأرض كلها، ثم قال الملك: أصدر أنت حكمك يا ابن مرو. فأرسل السمير الكبير ابن مرو اثنين من رجاله... فأحصيت أملاك جحوتي نخت وأعطيت للفلاح.

أنشودة النيل

حمداً لك أيها النيل

يا من خرجت من الأرض وأقبلت تغذو مصر

إن من يروي البراري هو الذي خلقه رع

ليغذو الماشية جميعاً.

وهو الذي يسقي الصحاري وإن بعدت عن الماء

فإن منه الندى الذي يهمي من السماء

إنه حبيب جب مدير إله الحصيد

إنه سيد الأسماك

وصانع الشعير وخالق القمح

إذا هبط كانت الأرض كلها في فزع

وحزن الكبير والصغير

وإذا ارتفع كانت الأرض في احتفال

وكل امرئ في حبور.

قصة سانوهي

أتيح لهذه القصة من الذيوع والانتشار ما يدل على أنها كانت من أحب القصص إلى قلوب المصريين منذ الأسرة الثانية عشرة، لما حظيت به من التداول والانتشار، ولقد أجمع العلماء على أنها مثال راق لأروع ما ورد من آداب المصريين، بل منهم من رفعها إلى ما فوق ذلك. ولم تكن وقائع هذه القصة كلها من ضروب الخيال ولكنها إنما كانت تعبر عن وقائع وأحداث من التاريخ الذي لا خيال فيه، فقد كان سانوهي أميراً، وما ندري لعله اتهم فيما كان من صراع على العرش تعرض فيه الملك أمنمحات للاغتيال، في مؤامرة لعلها فشلت ولكنها أنتجت لنا على كل حال أدباً جميلاً جرى على لسان الملك وهو يعظ ولي عهده وقد صدمه الجحود والغدر.

القصة

[تبدأ بمقدمة يذكر فيها سانوهي ألقابه ووظائفه ثم يقول]:

في العام الثلاثين، في الشهر الثالث من فصل الفيضان، اليوم السابع، ذهب الرب ملك الشمال والجنوب سحتب ايب رع إلى أفقه

وصعد إلى السماء حيث اتحد مع قرص الشمس واختلطت أعضاؤه بمن خلقها، فإذا القصر قد ران عليه الصمت والقلوب في حزن، وإذا البابان قد أغلقا حيث جلس رجال الحاشية وقد انحنت منهم الرؤوس على الركب، على حين طفق الناس من حولهم يبكون.

وكان جلالته قد وجه جيشاً إلى بلاد التمحو وجعل على رأسه بكر أبنائه الإله الطيب سنوسرت، وقد أرسل ليضرب البلاد الأجنبية ويسحق هؤلاء الذين كانوا من التحنو، فلما عاد ساق معه الأسرى من التحنو مع الماشية التي لا حصر لها من كل نوع.

وأرسل الموظفون من سمار الملك بالقصر من البر الغربي لينقلوا للملك ما حدث في القصر، فكان أن لقيه الرسل في الطريق ولحقوا به وقد جن الليل، فلم يبطئ لحظة واحدة، وإذا بذلك الصقر الملكي يطير عائداً مع أتباعه دون أن يعلم جيشه، ولكن رسولاً آخر كان قد بعث خلسة إلى سائر أبناء الملك ممن كانوا معه في الجيش فهرعوا إلى هناك.

ولقد كنت قائماً هناك عن قرب حين أقبل الرسول فسمعت صوته وهو يحدثهم. فإذا قلبي يضطر وذراعاي تتراخيان، والفزع يدب في أعضائي جميعاً، فاندفعت أبحث عن مختبأ أتوارى فيه، فجعلت نفسي بين شجرتين حتى اجد الطريق الذي أسلكه.

وكان أن وليت وجهي شطر الجنوب فقد قررت ألا أعود إلى القصر إذ قدرت أن فتنة سوف تقع هناك ولا أستطيع القول بأني سوف أعيش بعدها. ثم عبرت بعد ذلك مياه ماعتي عند مزارع الجميز ثم نزلت إلى جزيرة

سنفرو حيث أنفقت النهار في الحقول، فلما استأنفت الرحيل حينما تنفس الصبح لقيت رجلاً كان يعترض طريقي فحياني في احترام ولكني فزعت منه. ولما كان موعد العشاء كنت قد ألممت بمدينة نجاو فعبرت في زورق غير ذي مجداف بمعونة ريح الغرب فوصلت إلى الشرق عند محاجر سيدة الجبل الأحمر.

ثم كان أن سلكت الطريق إلى الشمال فبلغت أسوار الأمير التي شيدت لصد البدو وضرب جوابي الرمال، هناك ركعت بين الشجيرات فقد خفت الحرس من القائمين بالرقابة هذا اليوم أن يراني. ثم أنفقت الليل ماشياً حتى إذا كان فجر الغد، كنت قد بلغت بتن، ولكني ما أن بلغت جزيرة كم أور حتى سقطت من الأعياء وقد أنهكني العطش وألح علي، وضاق صدري وصعب تنفسي، والتهب حلقي بالغبار والجفاف؛ فقلت: "ذلك طعم الموت". ولكني قويت نفسي واستجمعت أطرافي وقد سمعت خوار قطيع من الماشية ولمحت البدو من بعيد.. وإذا شيخ القبيلة هناك يتعرف علي إذ كان قد زار مصر من قبل، فقدم لي ماء، وطبخ لي لبناً، ثم صحبته إلى قبيلته فلقيت منهم خيراً كثيراً.

ثم مضيت تسلمني بلد إلى بلد، فغادرت ببلوص وعدت إلى قدم حيث أنفقت هناك عاماً ونصف عام. ثم كان أن أخذني ننشي بن عامو أمير رتنو العليا قائلاً: لسوف تكون معي آمناً وتسمع هنا لسان مصر، وهو إنما قال ذلك لأنه كان يعرف منزلتي ولأنه سمع الحديث عن حكمتي، وقد شهد لي بذلك جماعة من المصريين كانوا عنده. قال لي: فيم أنت هنا

وكيف بلغت بك الحال كذلك، هل وقع في القصر شيء قلت: لقد رحل الملك سحتب ايب رع إلى أفقه، وما يدري امرؤ ماذا عسى أن يحدث بعد ذلك، ثم حدثته كاذباً بأني كنت عائداً من حملة على بلاد التمحو عندما أبلغت خبراً اضطربت له نفسي ودفعني قلبي الذي لم يعد في صدري إلى الصحراء، ومع ذلك لم يذكرني أحد بسوء ولا تلقيت عبارة ملام... لست أدري من ذا الذي جاء بي إلى هنا، لكأنما هو قدر من الإله. فقال لي: ماذا تستطيع هذه البلاد أن تفعل بدونه ذلك الإله الخير، الذي ذاعت رهبته في البلاد كلها كما ذاعت سخمت [٢٢] عام الطاعون.

فأجبته قائلاً [٢٣] : لقد دخل ابنه القصر فملك إرث أبيه، إنه الإله الحق الذي لا شبيه له والذي لا يفوقه أحد، إنه رب السجاحة ذو الرأي المتين، بأمره كل شاردة وواردة، وهو الذي أخضع البلاد الأجنبية على حين كان أبوه في القصر يصدر الأوامر ثم يحدث أباه بتنفيذ أوامره.... وهو الذي لا يعيد ضربته إذا قتل..

قلت له: اكتب إليه ودعه يعرف اسمك، ولا تذكره بسوء فلن يقلع

---

(٢٢) معبودة في شكل لبؤة كانت موضوع أساطير قديمة منها أسطورة إهلاك البشر.

(٢٣) كأنما أحس سانوهي بأن حديثه قد انطوى على مغمز في الملك الجديد بقوله إنه إنما ترك مصر لجهله بما قد يحدث فيها بعد سحتب ايب رع (أمنمحات) وشعر بأنه قد ينزلق مع ننشي بن عامو وقد عرف أن كثيراً من المصريين يمرون ببلاده فتسمع منهم أخبار الوادي حتى انتشرت اللغة المصرية هناك. لذلك فقد تحول فأطنب في مدح الملك عسى أن يبلغه ذلك فيعفو عنه وكأنما كان يحاول أن يلعب دوراً في السياسة الخارجية لمصلحة فرعون استرضاء له فإذا هو يطنب في الدعاية لفرعون والحديث عن قوته وإذا هو يغري الشيخ تنشي بن عامو بإظهار الود له.

عن أداء الخير لكل أمة تظل على الولاء له. فقال لي: حقاً ما أسعد مصر أن تقدر قوته.. أما أنت فمقيم عندي فواجد كل خير، وإذا همو يجعلني على رأس بنيه ويزوجني كبرى بناته، وقد أذن لي أن أنتقي من بلاده خير ما يملك عند تخوم بلد آخر، وكان بلداً طيباً اسمه "يا" فيه تين وعنب وفيه نبيذ أوفر من الماء ومقادير من العسل وزيت الزيتون وفاكهة من كل لون فضلاً عن الأشجار، وكان فيها الشعير والقمح، ومن بهيمة الأنعام ما لا يحصيه عد، مع ما كان يصل إلي من علائم حب الناس. فكان أن جعلني شيخاً لقبيلة في أحسن أقاليم بلاده، وأصبح الخبز يقدم إلي دائماً والنبيذ لشرابي كل يوم مع اللحم المطهو، والطير المشوي فضلاً عن حيوان الصحراء وما كانت تجلبه كلابي من الصيد.. وكذلك أنفقت السنين الطوال هناك حيث أنجبت أولاداً شبوا فتياناً لكل منهم رهطه الذي يدين له، وكان الرسل ممن يذهبون إلى الشمال أو الجنوب قاصدين القصر ينزلون بيتي، ذلك أني كنت أستضيف كل من يمر بي فأقدم الماء إلى الظمآن وأهدي الضال فأرشده إلى الطريق، وأحيط بالحماية كل من يتعرض للنهب.. ثم كان أن جعلني أمير رتنو قائداً لجيشه أعواماً طوالاً فهزمت كل بلد سرت إليه، فما كان أروع ما تركت من أثر في فؤاد الأمير الذي أحبني وأدرك مقدار شجاعتي فأحلني على رأس بنيه..

ولكن عملاقاً من أهل رتنو أقبل على مخيمي يوماً متحدياً وكان بطلاً مغواراً لا نظير له هناك، وكان قد أنزل الهزيمة بكل بلد أغار عليه.. جاءني فقال إنه يود نزالي، وفي ظنه أنه قادر على أن يقضي علي، وقد تآمر على

استلاب أغنامي مع قبيلته.. وجاءني الأمير مستشيراً؛ فأجبته بأنني لا أعرف الرجل ولا كانت بيني وبينه صلة ما، ولم أطأ مخيمه ولا اقتحمت عليه بابه أو تخطيت حائطه، ولكنه الحسد الذي أوغر صدره.. وهب أن فحلاً أراد قتال فحل آخر، أتراه يولي ظهره أمام قرين له يكافئه في كل شيء؟! إذا كان قلبه يحثه على القتال فليعلن ما يريد، أليس الله بعالم ما قدر فكيف لنا نحن أن نعرف.

وما أن أقبل الليل، حتى شددت قوسي وأعددت سهامي وشحذت خنجري ودفعته في غمده وصقلت أسلحتي... فلما لاح النهار أقبلت رتنو كلها – وقد أثارت قبائلها الأنباء وجمعت الناس مما جاورها من البلاد – وأقبل غريمي علي وأنا منتصب في ثبات فتقدمت منه والأفئدة كلها تضطرم من أجلي... كان النساء وأزواجهن يهتفون.. أما من شجاع يقاتل معه. ويرفع عدوى فأسه وحزمة من سهام طفق يقذفني بها، فتركته حتى استنفد أسلحته واحداً واحداً، وأنا أتجنب سهامه فتمر طائشة بي... فلما نفد ما معه اقترب كل منا من غريمه.. وكان يظن أنه يصيبني فهجم علي، ولكني قذفته بسهم استقر في عنقه، فأرسل صيحة عظيمة ثم انكب على وجهه فأجهزت عليه بفأسه، ثم أطلقت صيحتي وأنا على ظهره، فإذا الأسيويون من أتباعه جميعاً يتأوهون..، فحمدت منتو (٢٤) على حين انخرط شعبه في البكاء عليه، فيضمني الأمير تنشي بن عامو بين ذراعيه. ثم تحولت فاستوليت على أملاك عدوى، فازددت ثروة على ما كان لي من ثروة لا تعد وأغنام لا تحصى.

---

(٢٤) إله الحرب عند المصريين.

أصبحت غنياً بما عندي من عبيد وما لي من بيت فخم ومكانة رفيعة.. لقد فعل ربي ما فعل رحمة بمن أضله ففر إلى بلد غريب. وإن يوم النصر هذا إنما هو إيذان برضوان ربي علي!. لقد كنت بالأمس لاجئاً ولكني أجد اليوم من ينتصر لي. كنت هارباً يبيت على الطوى ويبرح به الألم والجوع، والآن يطعم الجار من زادي. وكنت أهيم بعيداً عن وطني في العراء ولكني أملك اليوم الأثواب الكثيرة والملابس البيضاء، كنت حائراً مضطراً إلى الجري لا أجد من أرسله. أما اليوم فأنا أملك جموع العبيد، وهذه داري أنيقة ورحابي واسعة وقد ارتفع ذكري إلى مسامع القصر. يا رب، يا من قدر على ذلك الفرار، كن رحيماً بي وأعدني إلى بلادي.. هلا قدرت لي رؤية البقعة التي يحن قلبي للعيش فيها؟ أمن شيء أحب لدي أو أعظم عندي من أن يدفن جسدي في الأرض التي ولد فيها؟ ارحمني يا رب.

هل لملك مصر أن يكون رحيماً بي فأعيش في ظلال كرمه، وأن يأذن لي برعاية شئون سيدة البلاد التي تسكن قصره وأسمع أوامر بنيها. لقد حلت الشيخوخة واعتراني الوهن وثقلت عيناي وضعف ساعدي وناءت قدماي بحملي وأرهق قلبي وحانت ساعة الوداع..

فلما خوطب جلالة ملك الشمال والجنوب خبر كارع في حالي. أسرع بالكتابة إلي وبعث لي بالهدايا مما يمنح لأفراد الحاشية فملأ ذلك قلب خادمه سانوهي فرحاً.

نص الأمر الذي حمل إلى الخادم المتواضع بعوته إلى مصر من حورس ملك الشمال والجنوب.. أمر ملكي للسمير سانوهي، أنظر لقد صدر هذا

الأمر لتعلم ما هو آت: إنك إنما رحلت بوازع من قلبك لك.. ولكنه لم يكن في قلبي ضدك. إن الملكة وهي سماؤك في القصر باقية على الخير متوج رأسها بملك الأرض وأبناؤها يشاركون في الحكم. فهيا عد إلى مصر وكن واحداً من الحاشية. لقد خطوت إلى الشيخوخة. ففكر في الموت والانتقال إلى حرمة الموتى. ولقد أمرت فأعدت لك الزيوت والأكفان ولسوف يعد لك يوم الدفن موكب كبير إلى القبر..

وبلغني هذا الأمر وقد كنت واقفاً بين أقاربي من أهل القبيلة، فلما قرئ علي خررت ساجداً ثم قبضت قبضة من تراب فحثوتها على رأسي، ثم اندفعت في الحي حول خيامي وأنا أصرخ فرحاً.

نص الاعتراف بوصول هذا الأمر.

سلام طيب عليك. وليقع كل ما تشرق عليه الشمس تحت سلطانك[٢٥] إن هذا الفرار لم يكن مدبراً. كأنه كان حلماً، كرجل من الدلتا رأى نفسه في فيله...

وأذن لي بالبقاء يوماً واحداً في أرض "يا ريثما" أوصي بأملاكي إلى أولادي فأقمت أكبر أبنائي شيخاً على الحي، وانتقلت قبيلتي وأملاكي كلها إلى حوزته. ثم توجه ذلك الخادم (سانوهي) إلى الجنوب فسلكت طريق حورس، وما أن بلغت منطقة المناقع حتى أوفد قائدها رسولاً إلى

(٢٥) يذكرنا بقول هارون الرشيد وقد نظر إلى سحابة في السماء "اذهبي حيث شئت يأتني خراجك" كناية عن اتساع سلطانه، كما يذكرنا بما كانت توصف به الإمبراطورية البريطانية بقولهم "لا تغرب عنها الشمس".

القصر يعلن وصولي، فإذا جلالة الملك يرسل ناظراً زراعياً من الضياع الملكية تتبعه محملة بالهدايا الملكية للبدو الذين رافقوني. ثم استأنفت رحلتي. حتى بلغت مدينة اثيت تاوي (العاصمة).

فلما أن أضاءت الأرض فجر اليوم التالي جاء يستدعيني ثم أقبل عشرة من الرجال ذهبوا بي إلى القصر فصافحت الأرض بجبهتي. واستقبلني أبناء الملك عند الباب، وأرشدني رفاق الملك.. إلى طريق القاعة (الملكية) فوجدت جلالته على عرش من ذهب فانبطحت على بطني وغشي علي، وكان هذا الرب يحدثني متلطفاً ولكني كنت كمن غشيه الظلام.. ثم قال جلالته لواحد من سمارة، دعه ينهض ليتحدث إلي ثم قال جلالته لي: ها تدعدت بعد أن ذرعت البلاد الأجنبية في فرارك.. لا تقم على الصمت، إلا تتحدث؟! وكنت أخشى العقاب فأجبت جواب الخائف: "... وددت لو استطعت الجواب... هأنذا بين يديك. وحياتي لك ولتفعل.. ما تشاء ثم أمر بدخول أبناء الملك وتحدث الملك إلى الزوجة الملكية: "انظري ها هو ذا سانوهي وقد عاد أسيوياً كأنه بدوي خالص. فندت صيحة عالية وصاح الأبناء الملكيون: حقاً كأنه ليس هو يا مولانا.. دعنا نحتفل بهذا الشيخ ابن الشمال ذلك البدوي الذي ولد في مصر، إنه ما حمل نفسه على الفرار إلا خوفاً منك، هجر وطنه لأنه امتلأ منك رعباً، أيمكن للوجه الذي تطلع إلى محياك أن يعتريه الشحوب.. فقال جلالته: لا خوف عليه ولا هو يحزن.. ولسوف يكون سميراً لي بين الأشراف.. اذهبوا به إلى قاعة الصباح (٢٦)

---

(٢٦) أي قاعة الزينة.

لتكونوا في خدمته...

ثم أسكنت داراً لأحد أبناء الملك يحوي أثاثاً فخماً وحماماً أنيقاً وزخارف مقدسة... وأثواباً من كتان، وعطوراً من المر والزيت الثمين مما يخص الملك والنبلاء وفيه الخدم قائمين بأعمالهم، وأزيلت عن أعضائي آثار السنين، ومشط شعري وألقي التفث إلى الصحراء والملابس لجوابي الرمال، ثم اكتسيت بأثواب الكتان الجميل ودلكت بأحسن الزيت ثم رقدت في سرير وتركت الرمال لمن يعيش فيها وزيت الخشب لمن يدلك نفسه به.

ثم منحت داراً وسط الحدائق... وشيد لي هرم من حجر بين سائر الأهرام... وإني لا حظي الآن بما يناله سمير الملك من عطف، وسيظل هذا النعيم حتى يأتي يوم الهبوط إلى الغرب في مدينة الأموات.

وبعد فهذه رحلة نفسية في قصة، تصور في روعة وجال ما اختلف على بطلها من المشاعر والأحاسيس، فهي تصور الصدمة التي تلقاها ساعة بلغته وفاة الملك وما توقع من المحنة والشر، وتصف خوفه وهلعه ثم ما لقيه من الأهوال والخطوب حتى قال لنفسه "ذلك طعم الموت".

حتى إذا بلغ رتنو (سوريا) إذا به يستخلف في الأرض ويبدل من بعد خوفه أمناً، فلا يلقى من حكامها إلا خيراً، فيتبدل شقاؤه نعيماً وعسره يسراً وإذا هو يتذاكر ذلك في أسلوب مؤثر جميل. والقصة تصور أثناء ذلك حياة البدو كأحسن ما يكون التصوير وتجلو نظام القبيلة ومجتمعها وما قد يتعرض له البدوي من لدن جيرانه من العدوان والغارة حين تورط سانوهي في مبارزة فرضت عليه ولم يكن يريدها.

ولكن النعيم الذي عاش فيه الرجل لم يكن ليلهيه عن وطنه والشوق لرؤيته والتطلع لأن يستقر جسده فيه بعد موته، وكان ذلك التعبير المؤثر الذي يصور لنا الحنين أحسن تصوير ويصور لنا إعزاز الوطن كيف يكون وكيف يحمل الرجل على ترك قبيلته وبنيه وأمواله ليعود إلى مسقط رأسه. وتصور لنا ذلك الفرح الذي أخرجه عن طوره حين أذن له الملك بالعودة بعد أن عفا عنه، وتنتهي القصة بالخاتمة السعيدة وهي العودة إلى الوطن والاستقرار فيه حتى يدفن في أرضه الطيبة.

قصة البحار الغريق

وهذه قصة أخرى لعلها مختصر لقصة طويلة تداولها الناس من قبل، ذلك أن أسلوبها وفواصل جملها قد أوحيا لبعض العلماء أنها نظمت شعراً بعد أن كتبت نثراً.

وتجري القصة على لسان أحد الأتباع، يتحدث بها إلى أمير عاد فاشلاً من رحلة كلفه بها الملك، وكان لذلك كثيب النفس، خائفاً من المثول بين يدي مليكه وليس في جعبته إلا أنباء الفشل، فيعمد تابعة إلى تسليته والتسرية عنه:

قال التابع الماهر: سلم قلبك أيها الأمير، أنظر: ها نحن قد بلغنا الوطن فأخذت المطرقة، وثبتت المراسي، ووضعت الحبال على الأرض، وأدينا صلوات الشكر والحمد لله، على حين طفق كل رجل يحتضن زميله، لقد عاد بحارتنا سالمين ولم نخسر من جنودنا أحد.. أنظر ها قد عدنا في سلام وها هي أرضنا قد بلغناها، أنصت إلى أيها الأمير.. خاطب الملك

وقلبك معك وأجب في غير خوف فإن منطق ارجل ينقذه وحديثه يكف عنه (غضب) الوجوه وافعل ما يوحيه فؤادك، إن حديثي يرهفك ولكن دعني أقصص عليك قصة مشابهة حدثت لي أنا نفسي حينما رحلت إلى المناجم الملكية فنزلت في الأخضر العظيم في سفينة بلغت مائة وعشرين ذراعاً في طولها وأربعين ذراعاً في عرضها وكان فيها مائة وعشرين بحاراً من أمهر البحارة في مصر.. قلوبهم أقوى من (قلوب) الأسود. وكان يتكهنون بالزوبعة قبل أن تقبل وبالعاصفة قبل أن تحدث.

وهبت العاصفة.. وإذا هي تقذف بأمواج متتابعة بلغت ثمانية أذرع في ارتفاعها، فتحطم الشراع الذي حملته الأمواج إلي، أما السفينة فقد هلكت ولم ينج واحد ممن كان فيها، ثم قذفت بي الأمواج إلى جزيرة من جزر البحر حيث أنفقت هناك ثلاثة أيام وحيداً لا رفيق لي إلا قلبي، راقداً في غابة لا أحتضن إلا الفراغ. ثم كان أن بسطت قدمي بحثاً عن شيء أضعه في فمي، فوجدت هناك تيناً وعنباً وكل طيب ممتاز من الخضر، ووجدت فواكه وجميزاً وقثاء كأنها ممدودة للطعام، ووجدت سمكاً وطيراً هناك، ما من شيء إلا كان فيها، فكان أن طعمت من ذلك حتى شبعت.. ثم أمسكت زناداً فأوقدت ناراً وقدمت للآلهة قرابين الحريق.

وإني كذلك، إذا بي أسمع كأن رعداً يقصف، فظننته أمواج البحر، ولكن الأشجار قرقعت والأرض زلزلت فلما كشفت عن وجهي، وجدت أفعواناً مقبلاً، كان طوله ثلاثين ذراعاً، أما أثره (على الأرض) فكان يزيد في عرضه على ذراعين، وكان جسده مموهاً بالذهب وحاجباه من اللازورد

الخالص، كان رائعاً جداً. وفتح فمه لي وأنا أمامه منبطح على بطني فقال لي: من جاء بك، من جاب بك أيها الرفيق، من جاء بك؟ لئن توانيت في إجابتي عمن جاء بك فلسوف أجعلك تعرف من أنت، بأن تكون رماداً وتصبح كأن لم تكن. كان يحدثني وأنا لا (أكاد) أسمع وكنت في حضرته وأنا لا أكاد أدري بنفسي من الرعب، فوضعني في فمه وحملني إلى مسكنه ثم حطني ولم يمسسني وكنت بخير، ثم فتح لي فمه وقال لي: ما جاء بك، من جاء بك إلى هذه الجزيرة، التي تحدق بها المياه من كل جانب، فأجبته وذراعاي مقبوضتان، أمامه قلت له: حدث أني ذهبت إلى أرض المناجم في بعثة للملك في سفينة كانت مائة وعشرين ذراعاً في الطول وأربعين ذراعاً في العرض، وفيها مائة وعشرون بحاراً من أحسن بحارة مصر.. وكانت قلوبهم أقوى من (قلوب) الأسود؛ وكانوا يتكهنون بالزوبعة قبل أن تقبل والعاصفة قبل أن تحدث، وكان كل فرد منهم أقوى وأشد ساعداً من أخيه ولكن أنظر لقد انفجرت العاصفة ونحن في البحر قبل أن نصل إلى الأرض وإذا بها تقذف أمواجاً متتابعة من ثمانية أذرع، وتحطم الشراع الذي حمل إلي، أما السفينة فقد هلكت ولم ينج واحد ممن كان فيها إلاي، انظر وهأنذا في حضرتك أنا الذي قذف إلى هذه الجزيرة على أمواج البحر. فقال لي: لا تخف، لا تخف أيها الرفيق؛ لا تكدر وجهك.. انظر لقد قدر الله لك أن تعيش فجاء بك إلى جزيرة الروح هذه.. أنها حافلة بكل طيب انظر، لسوف تنفق شهراً من وراء شهر حتى تكمل أربعة أشهر في هذه الجزيرة، ثم تقبل سفينة من وطنك وفيها بحارة تعرفهم فتذهب معهم إلى الوطن حيث تموت في بلدك.

ما أمتع أن يروى المرء ما ذاق بعد أن ينكشف الخطب، لسوف أروي لك كذلك ما حدث لي في هذه الجزيرة: لقد كنت فيها مع أخوتي، وأبنائي وكانت عدتنا سبعة وسبعين ثعباناً، ولن أذكر لك طفلة صغيرة جاءتني بعد دعوات. وإذا بنجم يهوي فيحترقون به، وحدث أنني لم أكن من بين الهالكين لأني لم أكن معهم ولكنني (كدت) أموت من أجلهم حين وجدتهم كومة واحدة من رماد، وإن كنت شجاعاً تحكمت في قلبك(٢٧).

لسوف تملأ أحضانك بأبنائك وتقبل زوجتك وترى بيتك؛ وأجمل من كل شيء أنك سوف تبلغ وطنك تعيش هناك مع أطفالك وفي وسط إخوتك.

وبينما كنت منبطحاً على بطني قبلت الأرض بين يديه ثم قلت له: لسوف أتحدث بقوتك إلى الملك وأحيطه علماً بعظمتك وأروي ما حدث لي مما وقع عليه بصري بإرادتك، وسوف يلهج بالثناء عليك في المدينة أمام موظفي البلاد كلها، وأضحى بالثيران قرباناً لك وألوى أعناق الأوز من أجلك، وسوف أوجه إليك السفن المشحونة بالبخور والمر وكل شيء طيب من مصر مما يقدم عادة إلى إله يحب العباد، في بلاد بعيدة لا يعرفها الناس. فضحك مني ومما قلت.. وقال إنك لا تملك الكثير من البخور ولو أصبحت مالكاً لبخور المعبد كله، ولكني أنا حاكم بونت والبخور ملكي –

---

(٢٧) لعل هذه الجملة من الحكم التي كانت تجري مجرى الأمثال وهي بأسلوبنا الحديث "الشجاع من تحكم في قلبه" وتذكرنا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "ليس الشديد بالصرعة، إنما السديد من يملك نفسه عند الغضب".

أما هذا البخور الذي تتحدث عن إحضاره فهو قوام ما في الجزيرة، ولسوف يحدث عندما نغادر هذا المكان أنك لن ترى هذه الجزيرة مرة أخرى إذ تتحول إلى أمواج.

وتقبل السفينة كما تنبأ من قبل، فذهبت فاعتليت شجرة عالية فتعرفت على من كان فيها فقصدت إليه لأبلغه بمجيئها فوجدته عالماً بذلك، ثم قال لي اذهب آمناً، اذهب آمناً أيها الرفيق الطيب، اجعل اسمي طيباً في بلدك، ذلك حقي عليك.. ثم منحني أحمالاً من البخور والمر، والتوابل والكحل وذيول الزراف، وأكواماً هائلة من الصموغ وأسنان الفيل، والكلاب والقردة والنسانيس، وكل شيء جميل، فحملت هذا كله إلى السفينة ثم انبطحت بعد ذلك على بطني لأشكره فقال لي: أنظر، لسوف تبلغ وطنك في شهرين فتأخذ أطفالك في أحضانك وتسعد في بيتك.

ثم نزلت إلى الشاطئ قرب السفينة فناديت بحارتها ثم قدمت الحمد على الشاطئ لسيد هذه الجزيرة وكذلك من كان فيها، ثم كان أن أقلعنا إلى الشمال قاصدين قصر الملك فبلغنا الوطن في شهرين كما قال تماماً.

ثم دخلت إلى الملك فقدمت إليه هذه الهدايا... فشكرني أمام موظفي البلاد كلها ورقيت فأصبحت تابع الملك وكوفئت بعبيده.

انظر إلي بعد أن بلغت الأرض وبعد أن لاقيت الخطوب، أنصت إلي أيها الأمير، أنصت فإن من الخير الإنصات. فقال لي: لا تتكلف المهارة أيها الصديق، ألست كمن يقدم الماء للأوزة في الجر ليذبحها في الصباح.

انتهت من المبدأ إلى المنتهى كما وجدت في الكتب، كتبها الكاتب الماهرة أصابعه ابن أميني أميناً الحي السعيد.

أما هذه القصة فإن لها أصداء قوية واضحة في الأدب الإغريقي والعربي جميعاً، ففي أوديسية الإغريق، نقرأ عن يوليسيس وقد ركب السفينة فمكث في البحر حيث أثار زيوس العاصفة فتحطمت سفينته كما تحطمت سفينة المصري، فكان أن يركب قطعة من خشب ظل يقودها كما يقود الجواد، وقد طفق أثناء ذلك يناقش قلبه كما كان قلب المصري رفيقه الوحيد. ثم إذا بموجة عاتية تندفع به إلى الشاطئ حيث استطاع كذلك بعناية الآلهة أن يلتجئ إلى غابة حيث ينام هناك كما فعل المصري ثم يصف يوليسيس ما في الجزيرة فإذا هي كجزيرة المصري ذات نباتات رائعة وفاكهة شهية. وكذلك يفرح يوليسيس بقرب عودته إلى وطنه فيقدم الشكر لسادة الجزيرة كما فعل المصري ومن العجيب أن يكون مصير الجزيرتين في القصتين واحداً فتنتهيان بالفناء فتتحول جزيرة المصري إلى أمواج وتختفي في البحر كما تدمر جزيرة شيري التي نزل بها يوليسيس بعد رحيله عنها. ومع ذلك فإن كثيراً من تفاصيل القصة المصرية قد وجدت سبيلها إلى مواضع متفرقة من الأوديسية، فقد أوقد رفاق يوليسيس النار ليقدموا القرابين للآلهة على طريقة المصري كما أن يوليسيس قد سمع دوياً هائلاً حين أقبل الوحش عليه.

ومهما يكن من شيء، فلم يقنع الأدب الفرعوني بهذا التأثير العميق في الأدب الإغريقي، ولكنك تجد له كذلك أصداء قوية تتردد في الأدب

العربي، وإنا لنقرأ تلك القصة المصرية القديمة فنحس كأنا نعيد قصة السندباد الذي يتحدث عن نفسه كالمصري فيقول: "... فغرقت في البحر مع جملة من غرق ولكن الله تعالى أنقذني ونجاني ورزقني بقطعة من خشب كبيرة فمسكتها وركبتها... وقد ساعدني الريح والأمواج إلى أن رست بي تحت جزيرة عالية، وقد ارتميت في الجزيرة.. وانتبهت.. وكان في الجزيرة فواكه كثيرة.. فصرت آكل من تلك الفواكه، ولم أزل على هذه الحال.... فلاح لي شبح.. فظننت أنه وحش.." وتمضي قصة السندباد بما فيها من تفاصيل كثيرة لا تخفي عنا صلب القصة فيروي أنه قابل ملك الجزيرة الذي يقوم مقام الملك الثعبان في قصة المصري فيحسن استقباله ثم يقول "... إلى أن وقفت يوماً من الأيام على جانب البحر وإذا بمركب قد أقبلت وفيها تجار كثيرة.. فعرفوني.. وأعلمت الملك.. ووهب لي شيئاً كثيراً.. ولما أراد تجار المركب السفر... دخلت عند الملك وشكرته على فضله وإحسانه ثم استأذنته في السفر إلى بلادي وأهلي فودعني وأعطاني شيئاً كثيراً عند سفري من متاع تلك المدينة ونزلت المركب وسافرنا بإذن الله".

وبعد فهذه هي قصة السندباد نقلناها بألفاظها بعد تخليصها من كثير من التفاصيل التي لا تنال من صلب القصة شيئاً، أترانا في حاجة إلى تعليق لعقد الشبه بينهما وهما تكادان أن تتفقا في الجمل والألفاظ، ومهما يكن من شيء فللقارئ أن ينظر في الليلة السادسة والأربعين بعد الأربعمائة من ألف ليلة وليلة وسيقرأ قصة حاسب كريم الدين، وسيرى أن هذه الليالي قد استلهمت من قصة البحار الغريق قصة أخرى عن جزيرة يسكنها الثعابين

يزورها حاسب، فتستقبله بالترحيب والتكريم وتحدثه بما وقع لها من أحداث كما وقع للمصري.

ويبرز في القصة المصرية عاطفة حب الوطن والحرص على العودة إليه وحب الأسرة والولد وقد تكرر ذلك في غير موضع من القصة وذلك فضلاً عما تردد فيها من التشبيه والكتابة والأمثال.



أخناتون .. الملك الفيلسوف والأديب الذي صاغ الأناشيد لربه آتون
فكانت من أروع ما عرف من آداب الدولة الحديثة

عصر الانتقال الثاني ومطالع الدولة الحديثة

حرب التحرير (لوح كارنارفون)

هب المصريون بقيادة ملوك طيبة لإجلاء الهكسوس عن أوطانهم، وكان أول أبطال الاستقلال سقننرع الذي استشهد حومة الوغى، ثم أعقبه كاموسي الذي حمل راية الجهاد من بعده وروى لنا ذلك بقوله:

لقد هبطت النيل لطرد الهكسوس بأمر آمون ذي الرأس السديد، ولقد تقدمني جيشي القوي كأنه جذوة من نار، وكانت طلائع الجيش من فصائل المازوي تتقدمه للكشف عن الأسيويين وتدمير مواقعهم، وكان الدهن والنبيذ يتدفق علينا من الشرق والغرب، وقد فاض على الجيش الطعام من كل مكان(١)، وقد وجهت فصيلة قوية من المازوي إلى الأمام على حين توليت بنفسي حصار نبتي بن تيتي في نفروسي، فقد كرهت أن أفلته، ففصلت بينه وبين الأسيويين ثم قضيت الليل على سفينتي منشرح الفؤاد، فلما أسفر النهار انقضت عليه كالصقر فدحرته وهو يعطر فمه(٢) فدمرت أسواره، وقتلت قومه وسقت زوجه إلى ضفة النهر، وكان جنودي كالسباع في اقتسام الغنائم من عبيد وقطعان، ودهن وعسل فاقتسموا بقلوب منشرحة ما كان للعدو.

---

(١) تلك وطنية تجلت في سخاء المصريين بتبرعهم للجيش الذي يقاتل في سبيل تحرير وطنهم من الغاصبين.

(٢) كناية عن الأقطار



أخناتون وأسرته يتعبدون لربهم .. قرص الشمس الذي يرمز للإله الواحد؛
رتلت له الأناشيد التي كانت من عيون الأدب المصري القديم

الدولة الحديثة

أناشيد أخناتون

شروقك جميل في أفق السماء
يا أتون يا حي يا مبدئ الحياة
إذا طلعت في الأفق الشرقي
ملأت الأرض كلها بجمالك
أنت جميل عظيم، تتلألأ عالياً فوق كل البلاد
أنت رع الذي تأخذهم أسرى جميعاً
وقد قيدتهم بحبك
إنك رفيع وأشعتك في الأرض
إذا ما غربت في الأفق الغربي من السماء
صارت الأرض في ظلمة كأنها موات
فيخرج كل سبع من عرينه
وكل الأفاعي اللاذعة
وإذا الكون في سكون
لأن خالقها قد ذهب يستريح في أفقه

تضيء الأرض إذا أشرقت في الأفق
فتكشف الظلام عندما ترسل أشعتك
تجعل ظلمة فيصير
ليل فيه يدب كل حيوان
الوعر، الأشبال تزمجر
لتخطف
مزامير ١٠٤ (٢٠ – ٢١)
تشرق الشمس وفي
مآويها تربض
وإذا الأرضان (مصر) في حبور كل يوم
فيصحوا الناس وينهضون على أقدامهم
وفي العالم كله يؤدون أعمالهم
تسير الفلك صاعدة هابطة
وأسماك النهار تقفز أمامك
لأن أشعتك تخترق البحر الأخضر العظيم
يا خالق الجرثومة في المرأة
وصانع النطفة في الرجل

ومعطي الحياة للوليد في جسد أمه
ما أعظم أعمالك
إنها محجوبة عن ناظر الإنسان
يا خالق الأرض كيف شئت
والإنسان والأنعام كبيراً وصغيراً.
وما يطير بجناحيه
وسوريا وكوش وأرض مصر
إن أشعتك تغذو كل بستان
إذا أشرقت عاش
وهو ينمو بك
الإنسان يخرج إلى عمله
وإلى شغله إلى المساء
مزامير ١٠٤ (٢٢ – ٢٤)
هذا البحر الكبير
الواسع الأطراف هناك
دبابات بلا عدد، صغار
حيوان مع كبار، هناك

تجري السفن

مزامير ١٠٤ (٢٥ – ٢٦)

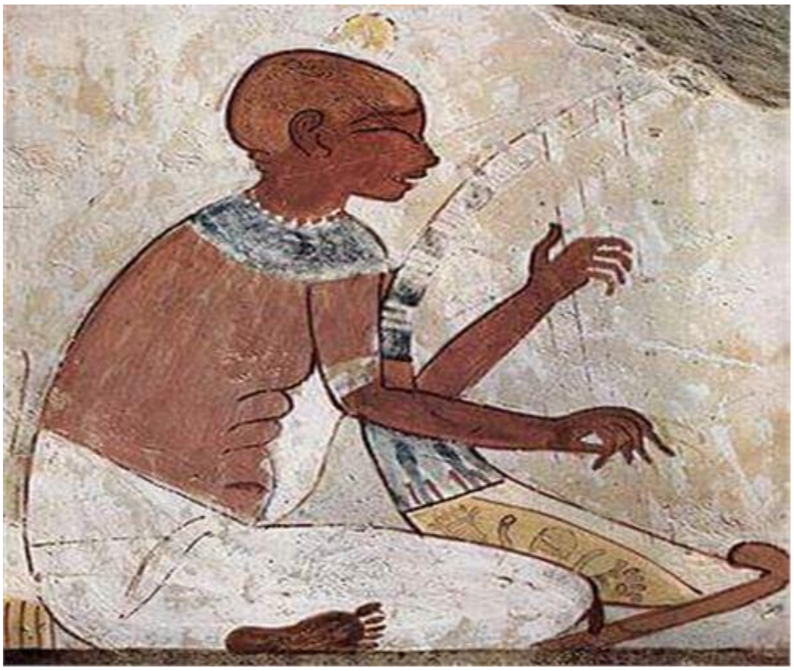
ما أعظم أعمالك

يا رب، كلها بحكمة

صنعت، ملآنة الأرض

من غناك

مزامير ١٠٤ (٢٤)



العازف الضرير يعزف للمنشدين والمغنين

الغزل

أغاني الفتاة

أخي ما أحلى الذهاب إلى البحيرة

والاغتسال على مرأى منك

لترى جمالي في ثوبي الكتاني الرفيق

حينما يبتل ويلتصق بجسدي

سأنزل معك إلى الماء

ثم أخرج إليك بسمكة حمراء جميلة

على أصابعي ترقد

تعالي وأنظر إلي

أغاني الفتى

أنني أرى أختي مقبلة

وقلبي يفرح

وذراعاي ينفتحان لضمها

وقلبي يفرح بها في موضعه

عندما تقبل الفتاة علي

إن ضممتها إلي وقد فتحت ذراعيها

كنت كمن كان في بونت (بلاد العطور)

وإن قبلتها وقد فتحت شفتيها

كنت سعيداً بغير خمر

التعاليم

من تعليم أمنموبي	سفر الأمثال
أمل أذنيك لتسمع كلامي	أمل أذنك واسمع كلام الحكماء
ووجه قلبك لمعرفتها	ووجه قلبك إلى معرفتي
لأنه مفيد إن وضعتها	لأنه حسن إن حفظتها
في قلبك[1]	في جوفك (٢٢؛ ١٧ – ١٨)
لا تنقل تخم الحقول	لا تنقل التخم القديم[2]
ولا تكن جشعاً نحو	ولا تدخل حقول الأيتام
ذراع من أرض	
ولا تعد على حدود أرملة	(٢٣: ١٠)
لا تتعب نفسك طلباً للمزيد	لا تتعب لكي تصير غنياً
... ولئن جاءك المال مسروقاً	كف عن فطنتك، هل
فلن يبيت معك سواد الليل	تطير عينك نحوه وليس هو

(١) كان لفظ القلب في اللغة المصرية يعني كذلك الجوف مما يقرب النصين تقريباً مدهشاً.

(٢) يقول برستد في "فجر الضمير" إنه قبل انكشاف النقاب عن حكم أمينموبي هذه أبدى نقاد "العهد القديم" أن كلمة "قديم" التي تشبه في اللغة العبرانية كلمة أرملة هي بلا شك غلطة في النسخة الخطية صحتها أرملة وقد أيد اكتشاف النص المصري ذلك.

فإذا أتى الصباح لم يعد بيتك	أنه إنما يصنع لنفسه أجنحة
لأنه إنما يصنع نفسه	كالنسر يطير نحو السماء (٢٣:
أجنحة كالأوز يطير نحو السماء	٤ – ٥)
لا تستصحب رجلاً عضوياً	
ولا تلحن في محادثته	لا تستصحب غضوباً ومع
	رجل ساخط لا تجئ
الكاتب الماهر في عمله يجد نفسه	(٢٢: ٢٤)
أهلاً لأن يكون من رجال البلاط	أرأيت رجلاً مجتهداً في عمله
	أمام الملوك يقف
تبصر لنفسك في هذه الفصول	(٢٢: ٢٩)
الثلاثين حتى تكون مسرة وتعليما	ألم أكتب لك ثلاثين[٣] فصلاً
	من جهة مؤامرة ومعرفة
	(٢٢: ٢٠)

دعاء رمسيس في المحنة

في معركة قادش وجد رمسيس نفسه محصوراً بين الأعداء ينوشونه من كل جانب فإذا هو يناجي ربه ويستغيث بذلك الدعاء:

ما هذا يا أبت آمون؟!

أحقاً يتخلى الأب عن ولده

(٣) يقول برستد إن أحد مؤلفي العهد القديم قد كان ينقل بغير تحفظ من ترجمة عبرانية لحكم أمنموبي، فأورد كلمة ثلاثين مع أنه لم ينقل ثلاثين فصلاً بأكملها في سفر الأمثال.

ألم أذهب أو أقف بأمرك
ألا ما أعظم سيد طيبة
إنه أعظم من أن يقترب منه الأعداء
ألم أجعل من أجلك الآثار الكثيرة
وأملأ معبدك بأسراي
أمن شيء طيب إلا أديته في محرابك
إن الشقاء واقع بمن يعصى أوامرك
والسعد نازل بمن يفهمك
إنني أدعوك
وأنا وسط أعداء لا أعرفهم
لقد اتحدت البلاد كلها علي
وهجرني جندي
ولم يلتفت إلي واحد من فرساني
ولو أني دعوتهم لم يسمعوا
ولكني أنادي
فأجد أمون أعز لي من مليون راجل
ومئات الألوف من المركبات

ومائة ألف رجل من الأخوة والبنين

إن جهد الجمهرة من الناس عدم

لأن آمون أعز منهم

إنني إنما أتيت هنا بمشورتك

وعن مشورتك لم أخالف

إن آمون يستمع لي

ويجيبني إذا دعوته[٤]

ويبسط إلى يده

ويدعو من ورائي

إلى الأمام إلي الأمام

فإني معك

إنني أبوك

ويدي معك[٥]

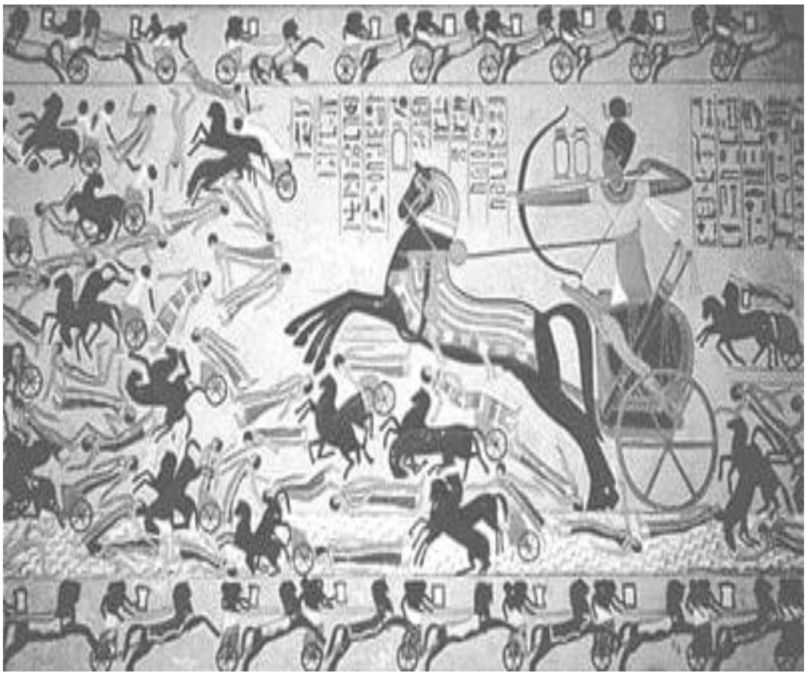
وأنا أقرب إليك من مائة ألف من الرجال

أنا سيد النصر الذي يحب القوة

---

(٤) وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان (قرآن كريم)

(٥) يد الله فوق أيديهم (قرآن كريم)



(معركة قادش) موقعة كان لها في الأدب المصري نصيب

الرسائل

وصف مدينة بررعمس عاصمة رمسيس الثاني التي أنشأها في شرق الدلتا.

الكاتب بايبس يحيى سيده الكاتب أمنموبي عاش في سعادة وصحة، كتب هذا لتعريف سيدي.

سلام آخر لسيدي، لقد بلغت بررعمس حبيبة آمون فوجدتها أروع ما تكون ازدهاراً، وهي عاصمة جميلة لا مثيل لها على نمط طيبة، إن رع هو الذي أنشأها بنفسه، وهي مقام تطيب فيه الحياة.

إن حقولها مليئة بكل شيء طيب وتتدفق عليها الأطعمة كل يوم، كما تمتلئ مياهها بالأسماك وبركها بالطيور، وإن أجرانها مليئة بالشعير والقمح (وتكاد) تبلغ إلى السماء، وفيها حدائق الرمان والتفاح والزيتون، والتين من البستان، أما النبيذ فهو أحلى من العسل، وفيها السمك الأحمر في القنوات.

إن المرء ليسعد بالإقامة فيها. أقبل ودعنا نحتفل بأعيادها السماوية مطالع الفصول.

إن شباب "عظيمة الانتصارات"[٦] في عيد كل يوم والزيت الطيب على رؤوسهم، وهم يقفون بأبوابهم وأيديهم مثقلة بالزهور.

فتح يافا

وهذه قصة تتناول من حروب بطل مصر المغوار تحتمس الثالث واقعة لا نعرف من أمرها إلا ما تحدثنا به.

أما بطل القصة فهو قائد حربي معروف من قواد تحتمس الثالث ما زال قبره في الأقصر حيث عثر عليه، كما أن له خنجراً في متحف دار مستاد ووعاء من ذهب في متحف اللوفر كان الملك قد أهداه إليه. وما من شك في أن تحوتي قائد تحتمس الثالث قد كان من كبار القادة الذين ذاع اسمهم وظل يتردد في الأسماع فيما أعقب زمانه بأجيال.

على أن هذه القصة لم يحفظ منها إلا ختامها، ولكن وقائعها الأولى

(٦) كناية عن المدينة

واضحة نستطيع تقديرها في غير مشقة أو عسر، فقد كانت الحرب دائرة في فلسطين والملك في عاصمته لما يخرج للقتال، وكان قائده تحوتي – بطل قصتنا – يحاصر يافا، وظاهر أن الحصار قد شق وطال، فكان أن رأى القائد أن يصطنع شيئاً من الخدعة والحيلة في الاستيلاء عليها، فدعا أمير يافا إلى لقاء بينهما حيث أحسن استقباله، ثم تحدث إليه القائد المصري قال إنه قرر الانضمام إليه والانتصار له، وزعم أنه سيلجأ إليه مع زوجته وأولاده ليعيشوا في يافا عنده. ثم تمضي القصة:

وبعد ساعة وكانا قد سكرا قال تحتوي (لأمير يافا) إنني لاجئ إليك مع زوجتي وولدي في مدينتك، فأمر الفرسان أن يعدوا الجياد ويزودوها بالطعام.

وكان أمير يافا قد أبدى رغبته في رؤية صولجان الملك تحتمس وقد جاء من يحدث تحوتي بذلك كما جاء أمير يافا فقال لتحوتي: إن رغبتي هي رؤية الصولجان العظيم للملك تحتمس. وحياة الملك تحتمس إنه لمعك اليوم، تفضل فاحضره إلى، ففعل كما أراد وأتى بصولجان تحتمس. ثم وقف قبالته وقال "أنظر إلى يا أمير يافا، هذا هو صولجان الملك تحتمس الأسد العبوس بن سخمت(٧)، لقد منحه أبوه آمون قوته ليهلك به الأعداء.

ثم ضرب أمير يافا على رأسه فسقط صريعاً أمامه، وعندئذ شد وثاقه بسيور من جلد ووضع قيوداً وأغلالاً من نحاس في قدميه.

---

(٧) إله الحرب.

ثم أمر فأحضر خمسمائة جوالق كان قد استصنعها وأمر مائتي جندي بالدخول فيها وملئت أيديهم(٨) بالأصفاد والأغلال ثم أغلقت عليهم، ثم أمر جنود شجعان بحملهم – فبلغ عددهم خمسمائة – وقيل لهم: إذا بلغتم المدينة فأطلقوا زملائكم واقبضوا على كل الناس في المدينة وصفدوهم بالأغلال.

وخرج رجل يقول لقائد عجلة أمير يافا: "يأمر سيدك بأن تذهب فتبلغ سيدتك: اهنأي قلباً فقد أعطانا سوتخ تحوتي وزوجته وأولاده، أنظري، وها هي جزيتهم – أي المائتا جوالق بما فيها من رجال وأغلال وسار على رأسهم ليفرح قلب سيدته قائلاً: "معنا تحوتي" ففتحوا أبواب المدينة المغلقة أمام الجنود وهكذا دخلوا المدينة فأطلقوا زملاءهم فقبضوا على رجال المدينة صغاراً وكباراً ووضعوهم في السلاسل والأغلال فكان أن استولت يد الملك القوية على المدينة.

وفي المساء أرسل تحوتي إلى مصر مخاطباً تحتمس بقوله أبشر فقد سلمك أمون أبوك الطيب أمير يافا وكل رجاله ومدينته كذلك، فأرسل رجالاً يأخذونهم أسرى يملأون بيت أبيك أمون ملك الآلهة بالذكور والإناث من العبيد الذين سقطوا تحت قدميك.

وبعد قصة فإن هي أقدم أصول ما نسمع من قصص الحيل في آداب الشعوب، كقصة حصان طروادة التي اشتهرت في الأدب اليوناني القديم وقصة الزباء في الأدب العربي وكيف احتال قصير فدخل عليها المدينة وهم

(٨) يعني أنهم زودوا بالكثير.

على جمال في الجوالق مختبئون وكذلك قصة علي بابا واللصوص الأربعين المشهورة واختباؤهم في الجرار.

الحق والباطل

أول هذه القصة ضائع لم يصل إلينا على البردية التي حفظتها، ولكنا نستطيع أن ندرك من سياقها أن الباطل قد تآمر على أخيه الحق، وذلك بأن أودع عنده سكيناً طالبه بها بعد حين، وكان الحق قد فقد سكين أخيه فلم يستطيع أداؤها إليه فأراد أن يعوض أخاه عنها بمثلها فلم يقبل وخاصم أخاه إلى محكمة التاسوع الإلهي مطالباً بسكينة التي أضفى عليها من الصفات ما لا حد له.

"عندئذ قال الباطل للتاسوع؛ فليؤت بالحق ولتطمس عيناه وليجعل حارساً لباب بيتي، فوافق التاسوع على كل ما قال، وبعد أيام عدة مرت على ذلك، رفع الباطل عينيه لينظر فرأى فضائل الحق أخيه الأكبر، عندئذ قال الباطل لخادمين من خدم الحق: خذا سيدكما وادفعاه لأسد ضار ولبؤات عديدة... فقبضا عليه، وإنهما ليصعدان به إذ قال الحق لخادميه لا تأخذاني، ولكن سلما غيري مكاني واذهبا أنتما إلى المدينة وجدا لي شيئاً من خبز.

وبعد أيام عدة مرت على ذلك خرجت فتاة من منزلها ومعها توابعها اللاتي رأين الحق متكئاً عند سفح التل، وكان الحق جميلاً لا يدانيه في جماله إنسان في الأرض كلها، فذهبن إلى حيث كانت سيدتهن وقلن لها: تعالي معنا فانظري إلى الضرير المتكئ عند سفح التل، فلنأت به ولنجعله حارساً

لباب بيتنا، فقالت لهن السيدة: اذهبن فأحضرنه حتى أراه، فذهبن فأحضرنه فلما رأته السيدة رغبت فيه جداً جداً وقد رأت أنه جميل في أعضائه، فاضطجع معها أثناء الليل وعرفها معرفة الرجال (للنساء) فكان أن حملت في هذه الليلة غلاماً صغيراً.

ابن الحق

وبعد أيام عديدة مرت على ذلك، وضعت غلاماً ذكراً لا مثيل له في البلاد كلها، وذلك أنه كان كبيراً كأنه إله صغير، ثم أرسل إلى المدرسة حيث تعلم الكتابة جداً جداً ومارس أعمال الرجال حتى فاق زملاءه الأسن ممن كانوا في المدرسة معه.

ثم كان أن سأله زملاؤه: ابن من أنت، إنك عديم الأب فساؤوه وآلموه، الواقع أنك بغير أب. فسأل الغلام أمه قال: ما اسم أبي حتى أخبر به زملائي فإنهم يقولون في خبث أين أبوك، كذلك يقولون ويؤلمونني فقالت له أمه: أنظر إلى هذا الضرير الذي يجلس إلى جانب الباب، إنه أبوك، كذلك قالت له فقال (هو) لها، فذلك أمر يدعي له رجال أسرتك ليطلوا لك تمساحاً (ليفترسك).

وأحضر الغلام أباه فأجلسه، فجعل كرسياً من تحته وجعل مسند أقدام تحت قدميه، ووضع بين يديه خبزاً وجعله يأكل ويشرب. ثم قال الغلام لأبيه: من أعماك حتى أنتقم لك. فقال له. إنه أخي الصغير الذي أعماني ثم روى له كل ما حدث، وكان أن مضى الغلام يطلب الانتقام لأبيه، فأخذ عشرة أرغفة وعصا واحدة ونعلين وقربة واحدة وسيفاً واحداً،

ثم أحضر ثوراً جميلاً جميلاً في منظره، ثم مشى إلى راعي الباطل فقال له: خذ هذه الأرغفة العشرة وهذه العصا وهذا السيف وهذين النعلين وارعِ لي هذا الثور حتى أعود من المدينة.

الانتقام

وبعد أيام عديدة مرت على ذلك، وكان ثوره قد أتم شهوراً عدة عند راعي الباطل، ذهب الباطل إلى الحقل ليرى ثيرانه فرأى ثور الغلام وكان جميلاً جداً جداً في مظهره، فقال لراعيه أعطني هذا الثور آكله. فقال الراعي إنه ليس لي... ولا أستطيع إعطاؤه لك فقال له الباطل: أنظر إن ثيراني بين يديك من أولها لآخرها، أعط واحداً منها لصاحبه.

وكان الغلام يسمع القول بأن الباطل سوف يأخذ ثوره فذهب إلى حيث كان الراعي فقال له: أين ثوري فإني لا أراه بين ثيرانك فقال له الراعي: ها هي الثيران كلها بين يديك من أولها لآخرها، فخذ لنفسك أيها شئت، فقال لها الغلام: هل من ثور له مثل حجم ثوري، إنه إن وقف في بلامون استقر شعر ذيله على سيقان البردي وأحد قرنيه على جبال الغرب وقرنه الآخر على جبال الشرق، إن النهر العظيم مضجعه ويولد له ستون عجلاً كل يوم فقال له الراعي: هل من ثور يكون بالحجم الذي تقول: ولكن الغلام أمسكه وأخذه إلى حيث كان الباطل ثم أخذ الباطل إلى المحكمة أمام التاسوع فقال الآلهة للغلام: ليس هذا صحيحاً.. فما رأينا ثوراً بالحجم الذي تقول فقال الغلام للتاسوع: فهل هناك سكين بالحجم الذي ذكرتموه، سلاحها جبل ايل ومقبضها أشجار فقط وقرابها قبر الإله وحزامها

قطعان كار. ثم قال الغلام للتاسوع: احكموا بين الباطل فإني أنا الولد الذي جاء ينتقم له. وعندئذ حلف الباطل بالملك قائلاً: بحياة آمون وحياة الأمير لئن وجد الحق حياً فلتطمس عيناي الاثنتان ولاكن حارسا باب بيت الصدق، ثم حلف الغلام... لئن وجد حياً ليأتين الباطل وليضربوه مائة جلدة وليجرحوه خمسة جروح وتطمس عيناه الاثنتان وليجعلوه حارس باب الصدق..

وبذلك انتقم الولد لأبيه وحسم النزاع بين الحق والباطل.

لم يكن أبطال هذه القصة شخوصاً ممن نألف في القصص القديم أو الحديث عادة، ولكنها قصة بين الحق والباطل أراد لها كاتبها على سذاجتها أن تكون قصة أخلاقية تدور حول الخير والشر، حتى يعلم الناس أن الشر مهما ظهر وانتصر فهو إلى الزهوق والهزيمة وأن الخير مهما أصابته المحن والخطوب فهو إلى الظهور والانتصار.

على أن هذه القصة لا تعدو أن تكون صورة أخرى من قصة إيزيس وأوزريس، حيث تآمر ست على أخيه فقتله ثم قام حور ابنه لينتقم له، ويحتكم إلى التاسوع فيحكم له. لذلك نشعر من سياق القصة أن وقائعها قد رسفت في قيود الاقتباس والتقليد، حيث أريد للحق أن يكون له ولد ينتقم له من عمه، فكان زواجه من تلك السيدة التي حالت البردية الممزقة دون تعريفنا من تكون، وهو الزواج الذي لم يعلن للناس فكان موضوع الغمز واللمز، وكان أن امتحن به ولد الحق بين أقرانه في المدرسة كما امتحن حور حين غمزه عمه ست في نسبه إلى أوزيريس.

ولقد حاول الكاتب أن يبرز الحادث الخلقي في القصة، فإن الولد قد أوجب على أمه الموت حين أوشك أن يتهمها ويظن بها الظنون، فود لو جمع الأسرة لتدفع أمه إلى تمساح يفترسها على ما ظن أنها اقترفت من الإثم، كأن القصة بذلك تريد أن ترفع من سلطان العدل وحرمة الأخلاق، ولو سلط سيف العدل على الأمومة وما لها من الحرمة وحق الرعاية والوفاء، على حين أبرز من ناحية بر أخرى الولد بأبيه ورحمته به حين أقبل عليه فأجلسه أحسن مجلس وحرص على طعامه وشرابه ثم عاهده على الانتقام له.

ثم تمضي القصة فتصور لنا كيف تكون الحيلة وكيف يكون المكر حيث دبر الولد لعمه جزاء من جنس عمله وحجة تشبه حجته وتقرعها، حتى ظفر من التاسوع بالاقتناع ثم بالحكم العادل الذي انتقم به لأبيه.

الإخوان

قيل إنه كان في يوم من الأيام أخوان من أم واحدة وأب واحد، وكان اسم الأكبر أنوبو واسم الأصغر باتا، وكان لأنوبو بيت وزوجة، على حين كان الأخ الأصغر يسكن معه كولد له، وكان هو الذي يصنع ملابسه ويرعى ماشيته، وهو الذي يزرع له ويحصد.. انظر لقد كان أخوه الأصغر فلاحاً ماهراً لا مثيل له في البلاد طرا، أنظر لقد كانت فيه نفحة من الإله.

ومضت أيام كثيرة على ذلك، والأخر الأصغر يخرج في الصباح يرعى الماشية كما اعتاد في كل يوم. ثم يعود في المساء إلى بيته محملاً بخضر الحقل من كل نوع مع اللبن وكل أطايب الحقول. فيمده بين يدي أخيه وهو

جالس مع زوجته يأكل ويشرب ثم يذهب لينام في حظيرته بين الماشية.

فإذا أضاءت الأرض وأقبل يوم جديد هيا الخبيز فوضعه أمام أخيه فيعطيه خبزاً للحقل ثم يسوق ماشيته لترعى في الحقل، وكان يمشي من وراء ماشيته التي تقول له إن الحشيش الطيب في مكان كذا وكذا فيصغي لكل ما تقوله ويقودها إلى الحشيش النضر الذي تتوق إليه. وكانت الماشية التي يحرسها تزدهر جداً جداً تلد صغاراً كثيرة جداً جداً.

فلما كان فصل الحرث قال الأخ الأكبر أعد لنا ثورين فقد ظهرت الأرض وهي الآن صالحة للحرث، وكذلك أحمل إلى الحقل البذر فسوف نجتهد في الحرث إذا كان البكور. فلما قال له ذلك فعل الأخ الأصغر كل ما أمره أخوه الأكبر.

ولما أن أضاءت الأرض وأقبل يوم جديد، خرجا إلى الحقول يحملان ما لهما من بذر فحرثا حرثاً مجهداً وقد فرحا جداً جداً لبدئهما العمل.

الإغراء

ثم مضت أيام كثيرة على ذلك، وإنهما لفي الحقل إذ احتاجا إلى البذور فأرسل الأخ الأكبر أخاه الأصغر قائلاً: أسرع واحمل إلينا بذراً من البلدة، فلما ذهب الأخ الأصغر وجد زوجة أخيه جالسة تمشط شعرها فقال لها: انهضي فاعطني بذراً حتى أسرع إلى الحقل لأن أخي هناك ينتظر؛ لا تتلكأي فقال له: اذهب وافتح صندوق الغلال واستخرج منه ما تريد ولا تحملني على ترك شعري، فذهب الشاب إلى حظيرته فأحضر وعاء كبيراً.. فاحتمل شعيراً وقمحاً وخرج به فقالت له: كم تحمل على كتفك

فأجاب: ثلاثة مكاييل من قمح واثنين من شعير.. قالت له: إن فيك لقوى هائلة وإني لأحظ قوتك دائماً ومال قلبها لأن تعرفه كما تعرف المرأة الرجل فنهضت إليه فأمسكت به وقالت له: دعنا ننفق ساعة ونضطجع فذلك ممتع لك وسأصنع لك الثياب الجميلة.

ولكن الشاب تحول كأنه فهد الجنوب من الغضب لهذا الأمر الخبيث الذي حدثته به، فإذا هي تخاف جداً جداً قال لها: انتبهي أنك لي بمثابة أمي وزوجك بمثابة أبي لأنه أسن مني وهو الذي رباني، يا له من إثم عظيم قلتيه إياك أن تتحدثي به إلي مرة أخرى، أما أنا فلن أدعه يخرج من فمي، ثم أخذ حمله فوصل إلي حيث كان أخوه وظلا يعملان بجد.

الوقيعة

فلما أقبل المساء عاد الأخ الأكبر إلى البيت، وظل الصغير يرعى ماشيته فلما احتمل الخضر.. عاد يسوق ماشيته أمامه إلى حيث يبيت في الحظيرة.

أما الزوجة فقد كانت خائفة جداً جداً لما فرط من إغرائها فتناولت دهناً وشحماً وتظاهرت بأنها ضربت.. فلما عاد زوجها عند المساء كعادته ألقى زوجه طريحة الفراش كمن أصابها الضر، فلم تصب على يديه الماء كما اعتادت ولم تضيء النور في طريقه وإذا البيت في ظلام، وكانت راقدة تقيء فقال لها زوجها، من ذا الذي كلمك فقالت: لم يكلمني أحد سوى أخيك الأصغر فإنه لما جاء يأخذ البذر وجدني جالسة أمشط شعري فقال لي دعينا نمض ساعة ونضطجع، ولكني لم أستمع له وقلت له: انظر ألست

لك بمثابة أمك وأخوك بمثابة أبيك، ذلك ما قلت له فخاف وضربني لكيلا أحدثك بالأمر، إنك إن أبقيت على حياته فلابد أن أموت أنا، انظر إنه عندما يعود في المساء وأروي ما حدث فسوف يحاول تبرئة نفسه.

الانتقام

وإذا الأخ الأكبر يتحول من الغضب كأنه فهد الجنوب فيشحذ خنجره ويشهره في يده، وذهب فتوارى خلف الحظيرة ليقتل أخاه عند عودته في المساء، فلما مالت الشمس احتمل نتاج الحقل كعادته في كل يوم.

ولما وصل ودخلت طليعة الأبقار إلى الحظيرة قالت "إن أخاك يقف في وجهك بخنجره ليقتلك، ففهم قول طليعة الأبقار، وقالت البقرة الثانية القول ذاته فأطل من تحت أبواب الحظيرة فوجد قدمي أخيه الأكبر واقفاً من وراء باب الحظيرة والخنجر في يده فحط حمله على الأرض واسلم نفسه للفرار بكل سرعته فتعقبه أخوه الأكبر بخنجره.

ونادى الأخ الأصغر رع حراختي قائلاً: إلهي العادل إنك أنت الذي تفصل بين المذنب والمحسن، فسمع رع حراختي دعاؤه وجعل بينه وبين أخيه لجة من ماء تغص بالتماسيح.. وإذا الأخ الأكبر يضرب كفاً بكف لعجزه عن قتله فصاح أخوه الأصغر من الضفة الأخرى قال: انتظر هنا حتى تضيء الأرض، فإذا ارتفع قرص الشمس احتكمت معك إليه فيعطي المذنب إلى البريء، أما أنا فلن أعيش معك أبداً، ولن تراني في مكان أنت فيه ولكني ذاهب إلى وادي الأرز (لبنان).

البراءة

فلما أضاءت الأرض وأقبل يوم جديد وارتفع رع حراختي رأى كل منهما الآخر، فقال الأصغر: لم تبعتني لتقتلني غدراً قبل أن تسمع لما يقول فمي، ألست أخاك الأصغر وأنت لي بمثابة الأب وزوجك بمثابة الأم؟ انظر، إنك حين أرسلتني لإحضار البذر قالت زوجتك لي دعنا نمض ساعة ونضطجع، ولكن انظر لقد قلب ذلك وعرض نقيضه عليك، ثم حدث أخاه بكل ما دار بينه وبين زوجته وأقسم يميناً بالإله رع ثم قال:

انظر لقد بسطت يدك لتقتلني غدراً لوقيعة بغي عاهرة، ثم تناول حداً من غاب وقطع به قبله ورماه في النهر حيث ابتلعه قرموط فخارت قواه وأغمى عليه واشتد مصابه، فامتلأ قلب أخيه عليه حزناً كثيراً وأجهش ببكاء مرتفع وهو هناك لا يستطيع الوصول لأخيه خوفاً من التماسيح.

الفراق

ثم صاح الأخ الأصغر: انظر، لقد استقر في فؤادك الشر، أما كان في طوعك أن يكون خيراً، فتتذكر من كل ما فعلت من أجلك فعلاً طيباً واحداً؟!

والآن عد إلى بيتك وارع ماشيتك بنفسك فلن أقيم بعد ذلك في مكان أنت فيه، ولكني ذاهب إلى وادي الأرز، أما ما عسى أن تفعل من أجلي فذلك بأن تقبل لتعتني بي إذا عرفت أن شيئاً أصابني، ذلك أني سوف أنتزع قلبي وأضعه على زهرة الأرز، فإذا قطعت الأرزة فوقع على الأرض وأتيت تبحث عنه ثم أنفقت في البحث سبع سنين فلا تيأس، فإذا

عثرت عليه ووضعته في وعاء من ماء بارد فإني عندئذ أعود إلى الحياة كي أرفع ما رميت به، وسوف تعرف متى ينزل بي السوء إذا وضع في يدك كأس من جعة فأرغى إلى حافته، فلا تتوان إذا وقع ذلك.

ثم رحل الأخ الأصغر إلى وادي الأرز، وعاد الأخ الأكبر إلى بيته ويده على رأسه الملطخ بالتراب، فلما بلغ بيته قتل امرأته وألقى بجثتها إلى الكلاب ثم جلس محزوناً من أجل أخيه.

وتمضي الأيام الكثيرة على ذلك، وقد عاش أخوه الأصغر في وادي الأرز وحيداً ليس معه أحد، كان ينفق اليوم في صيد وحوش الصحراء، إذا كان المساء عاد لينام تحت شجرة الأرز التي كان قلبه على زهرتها. ومضت الأيام العديدة فشيد لنفسه في وادي الأرز قصراً حفل بكل شيء جميل؛ ذلك أنه أحب أن ينشئ لنفسه بيتاً.

وخرج من بيته يوماً فلقي تاسوع الآلهة الذي خرج يدبر أمور الأرض فقالوا في فم واحد: يا باتا، يا فحل التاسوع الست هنا وحيداً منذ هجرت بلدتك من أجل امرأة أنوبو أخيك الأكبر، أنظر لقد قتل امرأته وقد دفعت ما اتهمت به، ومالت قلوب التاسوع بالرحمة عليه، فقال رع حراختي لخنوم: أخلق زوجة لباتا حتى لا يعيش وحده. فسوى خنوم رفيقة له كانت أجمل النساء في الأرض طرا لأنها احتوت كل إلهي في جسدها، وأقبلت الحتحورات السبع فرعينها وقلن في صوت واحد ستموت بالسكين.

وأحبها باتا أقصى غاية الحب وعاشت في بيته، وكان يصطاد وحوش الصحراء طوال اليوم ثم يعود بصيده فيمده عند قدميها.. قال لها (يوماً)

لا تخرجي من البيت حتى لا يجرفك التيار فلن أستطيع إنقاذك وأنا امرأة مثلك، وقلبي مودع بزهرة أرز إذا وجده سواء قاتلته وكشف لها عما في قلبه جميعاً.

وهكذا تمضي الأيام ويخرج باتا للصيد كما تعود كل يوم وخرجت الفتاة تتنزه تحت الأرز القائم عند بيتها فرآها البحر فتبعها بمياهه فهربت منه وجرى إلى بيتها فصاح اليم للأرز، اقبض لي عليها فكان أن انتزع الأرز خصلة من شعرها فحملها التيار إلى مصر فألقاها حيث كان غسالو فرعون قائمين وإذا عبيق الخصلة يعلق بملابس فرعون فثار على الغسالين وقال لهم: إن في ملابس فرعون عطراً حلواً. فقام النزاع بينهم كل يوم وهم لا يعرفون ماذا يفعلون، ثم كان أن ذهب رئيس الغسالين يوماً إلى ضفة النهر وقد ضاق صدره بذلك النزاع الذي يحل عليه كل يوم، فوقف على الرمال فإذا هو قبالة الخصلة التي كانت في الماء، فأرسل من يأتيه بها فوجد عطرها رائعاً جداً فحملها إلى الملك.

ثم كان أن دعي كتاب الفرعون وحكماؤه فقالوا لفرعون إن خصلة الشعر لبنت من بنات رع حراختي وفيها نغمة من كل إله وإنها هدية لك فلتأمر بالرسل فليبعثوا في أنحاء البلاد بحثاً عنها، ومر بالمبعوث إلى وادي الأرز أن يصحب معه خلقاً كثيراً حتى يحضرها، فقال إن ما قلتم لهو حسن جداً.

ومضت أيام كثيرة، وعاد الرسل الذين بعثوا إلى البلاد الأجنبية ليرفعوا تقاريرهم إلى الملك، أما الذين أرسلوا إلى وادي الأرز فلم يعودوا، ذلك أن بتا قتلهم جميعاً إلا واحداً تركه ليحدث جلالته بالخبر، ولكن

جلالته أنفذ جنداً كثيفاً وعجلات لإحضارها ومعهم امرأة تعطيها أنواع الحلي الجميل وزينة النساء، فجاءت الفتاة معها إلى مصر – فعم الفرح من أجلها أنحاء الأرض وأحبها جلالته حباً عظيماً وخلع عليها لقب الحبيبة العظمى.

ولما أن أضاءت الأرض وأقبل يوم جديد.. ذهب أنوبو إلى بيته فجلس وغسل يديه وأقبلت خادم عليه بإناء من جعة فأرغى، فأحضرت له كوباً من نبيذ فكان حامضاً، فتناول عصاه ونعليه وأخذ ملابسه وسلاحه ثم تولى إلى وادي الأرز، فلما دخل قصر أخيه الأصغر وجده في فراشه ميتاً. فلما رآه ميتاً بكى عليه، ثم خرج ليبحث عن قلب أخيه تحت شجرة الأرز التي كان أخوه ينام تحتها في المساء، فأنفق ثلاثة أعوام كاملة وهو لا يجده، فلما أقبل عام رابع كان فؤاده قد حن للعودة إلى مصر فقال سوف أرحل إذا كان الغد وكان ذلك ما قال في قلبه.

ولما أضاءت الأرض وأقبل يوم جديد، ذهب تحت شجرة الأرز فقضى اليوم كله بحثاً، ثم عاد في المساء فأنفق الوقت بحثاً كذلك، فوجد حبة عاد بها فإذا هي قلب أخيه الأصغر، فأتى بوعاء من ماء بارد وضع القلب فيه ثم جلس كعادته. ولما جن الليل وكان القلب قد امتص الماء إذا باتا يهتز جسده كله ثم إذا هو قائم ينظر إلى أخيه وما زال قلبه في الوعاء فتناول أخوه أنوبو وعاء الماء البارد الذي فيه القلب فسقاه إياه، فلما ابتلعه واستقر القلب في موضعه إذا بهما يتعانقان وطفق كل واحد منهما يتحدث إلى صاحبه.

ثم قال باتا لأخيه، انظر إنني سأتحول إلى ثور كبير فيه كل لون جميل ولن يعرف طبيعته أحد، وسوف تمتطي ظهري، فإذا طلعت الشمس كنت عند زوجتي حيث أرد عليها ما فعلت، وخذني إلى الملك الذي يؤدي إليك كل خير فتحمل بالذهب والفضة... لأني سأكون معجزة ويحتفل الناس بي في أنحاء البلاد كلها ثم تعود إلى بلدتك.

فلما أضاءت الأرض وأقبل يوم جديد تحول باتا إلى الهيئة التي حدث أخاه الأكبر بها، وجلس أنوبو على ظهره فوصل عند الفجر إلى القصر حيث عرض الثور على جلالته.. ففرح به فرحاً عظيماً وقدم إليه القرابين الكثيرة قائلاً: أنه لشيء عظيم، وفرح الناس به في أنحاء البلاد جميعاً وحمل أخوه بالفضة والذهب واستقر في قريته.

وعين له (الثور باتا) الخدم وقدم له الخير الكثير وأحبه فرعون جداً جداً أكثر من رجال هذا البلد كله.

ومضت الأيام العديدة على ذلك وذهب (باتا الثور) إلى الحريم حيث وقف عند السيدة المحبوبة فتحدث إليها قائلاً "انظري إنني ما زلت حياً فقال له من أنت فقال: إنني باتا، لقد كنت تعلمين عندما حملت فرعون على قطع الشجرة إني لن أحيا بعد ذلك، ولكن انظري إنني حي، إنني ثور وإذا المحبوبة ترتاع جداً جداً مما قال زوجها، وخرجت إلى الملك فجالسها وأنفق معها وقتاً سعيداً وكانت هي قائمة تساقيه فتلطف لها الملك جداً جداً فقالت لجلالته احلف لي بالإله قائلاً: مهما تقل اسمعه لإرضائها، واستمع هو لكل كلمة قالتها فقالت "سألتك كبد هذا الثور آكله فهو غير

ذي نفع لنا" فجزع الملك لقولها وامتلأ قلبه حزناً من أجله.

فلما أن أضاءت الأرض وأقبل يوم جديد أعلن عن احتفال عظيم، وقدمت القرابين للثور وأرسل جلالته أحد رؤساء جزاريه ليذبح الثور، فذبح وإذا به هو على أكتاف الخدم يهز عنقه فيسقط قطرتين من دم عند البابين العظيمين، فكانت إحداهما على أحد جانبي الباب والأخرى على الجانب الآخر، فكان أن نبتت دوحتا لبخ عظيمتان كانت كل منهما رائعة، وذهب من أخبر جلالته أثناء الليل، فأقيمت الأفراح لذلك في أنحاء البلاد وقدمت لهما القرابين.

ومضت أيام كثيرة وأشرق جلالته في نافذة اللازورد في عنقه إكليل من كل أنواع الزهر فاعتلى عجلته الذهبية وخرج من قصره ليرى الدوحتين وخرجت المحبوبة في موكب من ورائه، هناك جلس جلالته تحت دوحة وجلست المحبوبة تحت أخرى فتحدث باتا إلى زوجته قال أيتها الخائنة، إنني باتا، إنني حي على الرغم منك، وإنك لتعلمين أنك حملت فرعون على قطع الأرزة، فلما تحولت إلى ثور ذبحتني.

ومضت أيام كثيرة وكانت المحبوبة يوماً قائمة تساقي فرعون فتلطف معها فقالت لجلالته، احلف لي بالإله قل مهما تقل اسمعه لإرضائها. فسمع كل ما قالت فقالت عندئذ، مر بقطع هاتين الدوحتين واستصنع منهما أثاثاً جميلاً فسمع لكل ما قالت وسرعان ما أمر جلالته عماله المهرة فقطعت دوحتا الملك، وكانت الزوجة الملكية المحبوبة ترقب ذلك فطارت شظية دخلت فم المحبوبة فابتلعتها فحبلت في الحال، وصنع من الشجرتين كل ما أرادت.

ومضت الأيام الكثيرة على ذلك ووضعت السيدة غلاماً ذكراً، فذهب الناس فحدثوا جلالته قالوا: لقد ولد لك غلام ذكر، فلما حمل إليه عين له مرضعة وخدماً وأقيمت الأفراح به في أنحاء البلاد جميعاً وجلس الملك فأمضى يوماً سعيداً وكان في عيد، وأحبه جلالته جداً جداً لساعته وسماه الابن لكوش، وبعد أيام عديدة جعله جلالته ولي عهده على البلاد كلها.

فلما مضت السنون العديدة وهو ولي للعهد، صعد جلالته إلى السماء فقال (باتا) عندئذ، فليدع حكام جلالته حتى أحدثهم بكل ما وقع لي ودعيت زوجته فحاكمها على ملأ منهم ونفذ فيها حكم القصاص، ثم دعي إليه أخوه الأكبر فجعله ولياً لعهده على البلاد كلها. ولما قضي ثلاثين عاماً على العرش وافاه أجله وقام أخوه الأكبر مكانه يوم وفاته.

قصة تنفرد في الأدب المصري القديم بما فيها من هذا النوع من الخرافة والخيال، ولا نكاد نمضي في قراءتها حتى نحس كأنما نقرأ فصلاً من فصول ذلك الكتاب العربي المشهور ألف ليلة وليلة، ومع ذلك فالقصة على ما فيها من صور الخيال ممتعة مشوقة فضلاً عما حوت من تصوير لحياة المصريين الأقدمين وما نرى فيها من لمحات نألفها في غير قصص المصريين من آداب.

فالقصة تجري في الريف المصري حيث الزراعة عماد الحياة وحيث النظام الاجتماعي الذي يفرض على الأخ الأكبر القوامة على أخيه اليتيم. وحاصل القصة في مجموعها إنما هو تاريخ لصنف من المرأة السيئة وما

جبلت عليه من الخيانة وما طبعت عليه من المكر والكيد، ومن استهتار برباط الزوجية وعقدته المقدسة، والقصة هنا تتناول مشكلة من أعقد مشاكل الإنسان، إذ تضطر الأخ الأكبر إلى رعاية أخيه فيضمه في بيته بينه وبين زوجه، والرجل في ذلك إنما يعتمد على وفاء الزوجة وأمانة الأخ وعرفانه ثم لا عاصم أو رقيب بعد ذلك إلا للفطرة السليمة والخلق القويم.

ويبدو أن القصص المصري القديم إنما كان يحمل المرأة من الوزر والتبعة أكثر مما يحمل الرجل، ويجعلها المسئولة عما يقع من فساد، فقد جاء الإغراء في هذه القصة وفي غيرها من قصص المصريين من قبل المرأة.

وقصة الأخوين هي قصة المرأة التي تنزغ بين الأخوين وتفسد ما بينهما من أواصر الحب والأخوة، وتدمر بخيانتها بيتاً كان آمناً مطمئناً يحيا في خفض ورغد من العيش. وقصة الخير والخيرين وما عسى أن يتعرضوا له من ألوان المحن والخطوب وما قد ينزل بهم من الشر. وقصة القديسين الذين لا تخلوا حياتهم من الشدائد والآلام ثم غلبة الحق آخر الأمر وانتصاره.

ولا تخلو القصة مع ذلك من فصول خليقة بالتأمل والنظر، لأنها لا تخالف عما ألفنا من قصص قرأناها في الأدب القديم والحديث جميعاً، وما فيه من أخيلة وصور متشابهة إلى حد بعيد.

وأقرب القصص إلى الشبه بقصتنا قصة يوسف عليه السلام، فنجد الصغير الذي قام على تربيته رجل أكرم مثواه عسى أن ينفعه أو يتخذه ولداً، فإذا بامرأته تراود الفتى عن نفسه، ثم تعود فتدفع عن نفسها الشبهة

باتهام الفتى العف البريء، ولا تقنع إلا بتحريض زوجها عليه، ثم يقدر للفتى أن تظهر براءته ثم يقوم للبلاد حاكماً بعد الشدائد والآلام.

وقصة مشابهة أخرى من الأدب الروسي الحديث، فقد روي أن شاباً يسمى ايفان بن جرمان وجد سيفاً سحرياً حارب به الترك فأبلى به أحسن البلاء وقتل منهم ثمانين ألفاً، فكان أن كافأه الملك بتزويجه ابنته كليو باترا، ثم خلفه على العرش بعد وفاته، ولكن البطل الروسي يتعرض لمحنة كتلك التي تعرض لها باتا في القصة المصرية، فقد خانته زوجته وسلمت هي نفسها لسلطان الترك، ومع ذلك فقد استطاع الفتى البطل أن يعود إلى الحياة بمساعدة أبيه، ثم انطلق حتى إذا لقي فلاحاً قال له: إني جاعل نفسي حصاناً جميلاً ذا معرفة من ذهب، وعليك أن تقودني إلى قصر السلطان، فلما رأى السلطان الحصان أعجب به وأخذه، ولكن كليو باترا طلبت منه أن يذبحه فذبحه فنشأ من دم الحصان ثور أمرت بذبحه كذلك فنبتت من رأسه شجرة تفاح أمرت كليو باترا بقطعها، فطارت منه شظية تحولت ذكراً عظيماً من البط حاول السلطان صيده فأفلت منه، ثم عاد ايفان في صورة السلطان ليلقي بزوجته وعشيقها في النار ويستولى على الملك.

ومهما كان من شيء فقد رأينا أن الشر قد حل بين الأخوين ولم يعد سبيل لأن يساكن أحدهما الآخر، وإنما أحس المظلوم منهما أنه جرح في كبريائه وكرامته، وأنه كوفئ على الخير بالشر وعلى النفس البريئة بالاتهام الباطل وعلى الجميل بالجحود والنكران، وقد عبر الفتى الصغير عن ذلك

وهو يحاور أخاه بأسلوب مؤثر على سذاجته، جميل على خلوه من الصنعة والتزويق. وخرج الفتى يضرب في الأرض مفارقاً أخاه فينفي نفسه في وادي الأرز في لبنان وفي ذلك إشارة على ما كان بين مصر يومئذ وبين غيرها من صلات، ويستقر هناك وحيداً لا معين ولا رفيق، ويحيا هناك جسداً لا شهوة فيه ولا روح، ولكن التاسوع الإلهي يمتحنه كما امتحن آدم بحواء، فيرزقونه امرأة قصدوا بها إلى أن تملأ حياته حناناً وبراً فأحبها الفتى وأحاطها بالرعاية وخشي عليها كل مكروه، ثم جعلها موضع ثقته "ففتح لها قلبه" واعترف لها بنقصه الجثماني الذي أنزله بنفسه وهو يتبرأ من تهمته أمام أخيه، وحدثها بأنه بذلك "مثلها كالمرأة" فلا يستطيع معاشرتها معاشرة الأزواج، والقصة هنا تمس جانباً آخر من جوانب الحياة الاجتماعية ومشاكلها فيما يفترض في الزوج من الصحة وسلامة الأعضاء ليصح زواجه ويبقى، فإن لم يكن كذلك انتفى رباط الزواج وانهار، فما أسرع ما انقلبت الفتاة على زوجها حين أتيح لها ذلك رغم ما في حياتها من الرغد واليسر.

ثم تعود الأيام لأحكام ذلك الامتحان العسير الذي قدر على باتا، فقد عرف فرعون بمكان تلك المرأة فشغف بها وطمع فيها لنفسه كما يطمع الملوك وأولو البأس فيهما نقرأ من آداب الشعوب، فإذا هو يرسل إليه من يغتصبها اغتصاباً ويغريها بمفارقته، ولكن الفتى بما فيه من الحمية والبسالة يدافع عن عرضه فيقتل الجنود جميعاً إلا واحداً أبقى عليه ليحدث فرعون بما حل بجنود أطماعه.

ومهما يكن من شيء فإن الفتاة تؤول إلى فرعون فتفارق زوجها قالية له مع المرأة التي أرسلت لإغرائها واصطحابها، وهي في هذا قد قامت مقام القهرمانات في ألف ليلة وليلة، وتقبل الفتاة الخائنة فتزيد إثبات إخلاصها لفرعون بالغدر بزوجها فتظل تتعقبه لتقضي عليه، ولكن الفتى يعود إلى الحياة بصورة أو بأخرى، فهو الصراع بين البقاء والعدم، ثم يعود فيتكرر مولده وتقضي أقدار القصة بأن التي تهب له الحياة في المولد الثاني إنما هي نفس المرأة التي تتعقبه بالفناء، ثم يقوم سيداً للبلاد فيحكمها ثم يخلفها لأخيه.

والقصة آخر الأمر توضح لنا مكان المرأة في المجتمع المصري القديم وواجباتها بالنسبة لبيتها وزوجها، فقد فهمنا أن امرأة أنوبو كانت قائمة على شئون البيت وخزينه وأنها كانت تستقبل زوجها منصرفة من الحقل وعودته إلى البيت فتضيء له الطريق وتصب على يديه الماء قبل الطعام. وكذلك تحدثنا القصة عما في خيال المصريين من فكرة عن المرأة وما قد يكون لها من نفوذ على الرجال، وذلك فيما كان من حبيبة فرعون التي استطاعت أن تحمله على قتل الثور الذي قدسه الناس وقطع الدوحتين اللتين فرحوا بهما.

أما أسلوب القصة فهو من قبيل الأساليب الشعبية فلا تكلف فيها ولا صنعة، وإنما كثرت فيها التعبيرات والصيغ المتكررة التي يصطبغ بها القصصي الشعبي عادة والتي ما يزال قصصنا الشعبي يتخذ مثلها بين فقراته.

القدر المحتوم

يحكى أن ملكاً لم يولد له ولد ذكر، فكان أن دعا جلالته أن يرزق بولد من لدن آلهة زمانه، فقرروا أن يولد له ولد. وكان أن اضطجع مع امرأته في الليل، انظر، وإذا بامرأته تحمل، فلما أتمت أشهر الحمل ولد لهما غلام ذكر.

وجاءت الحتحورات ليقررن له مصيره، فقلن إنه سوف يموت من التمساح أو الثعبان أو الكلب، وسمع الناس من حول الطفل ذلك فيعيدونه على جلالته، فحزن قلب جلالته حزناً عظيماً، ولذلك فقد ابتنى جلالته له بيتاً من الحجر في الصحراء وجهزه بالناس ومن كل شيء طيب من القصر الملكي وإذا الطفل لا يخرج منه.

فلما شب الصبي صعد إلى سطح منزله فرأى كلباً من وراء رجل يمشي في الطريق، فقال لتابعه الذي إلى جانبه "ما هذا الذي يمشي من وراء ذلك الرجل المقبل في الطريق؟ فقال له إنه كلب فقال الصبي مرفليؤت لي بواحد مثله، فذهب التابع فأخبر بذلك جلالته فليحمل إليه جرو صغير حتى لا يحزن فؤاده، فحمل إليه الكلب.

ومرت الأيام ونما الصبي بعدها فأرسل إلى أبيه يقول، حتام أقعد هنا؟ انظر لقد قدرت على مصائر ثلاثة، فلأترك أفعل ما أهوى حتى يقرر الرب ما يريد. فكان أن أعدت له مركبة جهزت بكل أنواع السلاح وجعل له رجل من ورائه تابعاً له ثم عبروا إلى الشاطئ الشرقي وقيل له انطلق حيث تشاء، فأخذ كلبه معه وانطلق إلى الشمال كما أراد في الصحراء حيث

عاش على خير أنغام البرية ثم وصل إلى حاكم النهرين.

انظر، ولم يكن قد ولد لحاكم النهرين إلا مولودة أنثى، انظر وقد أقيم لها منزل ذو نوافذ عالية بمقدار سبعين ذراعاً عن الأرض، وأمر الحاكم فأحضر أبناء العظماء في أرض سوريا فقال لهم: من بلغ نافذة ابنتي كانت له زوجة.

فلما مضت أيام كثيرة على ذلك وهو في عاداتهم اليومية مر عليهم الصبي فأخذوا (ذلك) الابن الملكي إلى بيتهم فنظفوه وقدموا طعاماً لجواده، وقدموا كل شيء للصبي فعطروه وضمدوا أقدامه وأعطوا طعاماً لتابعه، ثم قالوا له وهم يحدثونه: من أين أتيت أيها الغلام الطيب فقال لهم: إنني ابن ضابط من أرض مصر، ماتت أمي وتزوج أبي امرأة أخرى مكانها، وقد حدث أن كرهتني فأتيت هارباً منها. ولما مضت أيام عديدة على ذلك قال للصبية، ما هذا الذي تفعلون فقالوا له؛ أنظر لقد أنفقنا الشهور والأيام ونحن نحاول الصعود، ذلك أن من يبلغ نافذة بيت أمير النهرين فسوف يعطيها له زوجة، فقال لهم: هل لي أن أجرب قدمي، فأصعد معكم، وذهبوا للصعود كعادتهم كل يوم ووقف الصبي عن كثب يشاهد، وإذا وجه ابنة أمير النهرين يشرف عليه، وبعد أيام عديدة حدث أن تقدم الصبي ليصعد معهم فبلغ نافذة أمير النهرين فقبلته واحتضنته. وذهب رجل يبشر بذلك أباها قال لقد بلغ أحد الرجال نافذة ابنتك فسأل الأمير قائلاً: ابن من من العظماء هو! فقيل له ابن ضابط جاء هارباً من أرض مصر من زوجة أبيه، فإذا أمير النهرين يغضب غضباً شديداً وقال: أتراني

أعطي ابنتي لهارب من أرض مصر، مروا فليرجع، وجاء من يقول له اذهب من حيث أتيت ولكن الفتاة أمسكت به وأقسمت بالإله قائلة: بحق رع حراختي لئن أخذتموه مني آكل ولن أشرب ولأقتلن نفسي في الحال. فذهب الرسول ليبلغ كل ما قالت لأبيها فأرسل إليه جماعة لتقتله في مكانه، فقالت البنت بحق الشمس لئن قتله أحد فلن تغرب الشمس حتى أقتل نفسي ولن أعيش ساعة بعده. فذهبوا فرووا ذلك لأبيها. فاستدعى أبوها الفتى مع ابنته إليه فحلت هيبته على الحاكم الذي احتضنه وقبله. ثم قال له: حدثني كيف حالك فأنت في منزلة ابنتي فقال له، إنني ولد ضابط من أرض مصر ماتت أمي وتزوج أبي أخرى، وقد حدث أن كرهتني فأتيت إلى هنا فراراً منها، فكان أن أعطاه ابنته زوجة له ومنحه بيتاً وحقولاً، وكذلك ماشية وكل شيء طيب.

فلما مضت أيام كثيرة على ذلك قال الفتى لزوجته: إنني محتوم لثلاثة مصائر التمساح أو الثعبان أو الكلب فقالت له، مر فليقتل الكلب الذي يتبعك؛ فقال لها لن أسمح بقتل كلبي الذي ربيته، إنه كولدي، فكان أن سهرت على حراسة زوجها ولم تعد تسمح له بالخروج وحده.

ثم عاد الأمير إلى بلاده، وكان في المدينة التي يعيش فيها بحيرة فيها تمساح وكان فيها رجل قوي. وكان الرجل لا يسمح للتمساح بالخروج، فإذا نام التمساح خرج الرجل القوي يتجول، حتى إذا طلعت الشمس وقفا وجهاً لوجه وظل ذلك كل يوم لمدة شهرين. ومضت على ذلك أيام، وكان الفتى جالساً في بيته مرحاً، فلما أقبل الليل اضطجع الفتى في فراشه

وحل النوم في أعضائه جميعاً، وكان أن ملأت زوجه وعاء عسلاً وآخر جعة، وإذا ثعبان يخرج من جحره ليعض الفتى، ولكن زوجته جلست إلى جانبه ساهرة لا تنام، وقدمت الخادمة وعاء الجعة إلى الثعبان فشرب حتى سكر ونام وانقلب على ظهره فقطعته الزوجة إرباً بفأسها ثم أيقظت زوجها وقالت له: انظر لقد سلم إليك ربك أحد مصائرك في يدك وسوف يفعل ذلك بالآخرين ثم صلت لرع وعبدته وسبحت بقوته كل يوم.

ثم مضت على ذلك أيام، وخرج الفتى يتنزه في ضياعه. وتبعه كلبه الذي قصد البحيرة ونزل إليها فجرى وراء كلبه فحمله التمساح إلى حيث الرجل القوي ثم قال التمساح للفتى: إنني مصيرك الذي يتعقبك. ولكن انظر سوف أخلي سبيلك.

وتتمزق البداية هنا فلا نكاد نتبين منها شيئاً ولكن الراجح أن الأمير قد نفذ فيه قضاؤه بأن جنى عليه كلبه جناية أودت بحياته من غير قصر وبذلك نفذ القضاء المحتوم.

قصة القضاء المحتوم الذي لا مفر منه ولا مناص وقد يسعى الإنسان إليه في فراره منه، كتب فيه المصريون هذه القصة قبل أن يكتب اليونان "أوديب" بقرون وقرون ونقرأ القصتين فنشعر أن القصة المصرية قد عبرت البحر إلى اليونان لتظهر هناك في طابع يوناني.

ورد في قصة أوديب الإغريقية أن لايوس ملك طيبة لم ينجب خليفة له، فلما اشتاق للولد استجابت الآلهة لدعائه ولكنها أنبأته بأن هذا الابن سيقتله ويتزوج من أمه، وخشى الملك النبوءة فعهد بالطفل إلى أحد عبيده

ليلقي به في مكان ناء على الجبل، ولكن العبد أعطى الطفل لراع حمله إلى ملك ورنثة الذي لم ينجب كذلك فتبناه.

وشب الطفل وعلم بأمر ذلك القضاء الذي قدر عليه، فحاول الفرار منه بالخروج من كورنثة التي ظنها وطنه؛ وإنه لفي طريقه إذا به يواجه والده ملك طيبة في ممر ضيق فيقتتلان على أسبقية المرور فيقتله وهو لا يعرفه ولا يعرف أنه قد حقق الشق الأول من النبوءة.

وواصل أوديب سيره إلى طيبة، حيث وجد الناس في هلع من شراسة الاسفنكس التي أقامت على صخرة عالية، وطفقت تلتهم كل من يعجز عن حل لغز طرحته عليهم، فاتفقوا أن من حل اللغز وخلص طيبة من نقمة الاسفنكس حق له الظفر بعرش طيبة الشاغر ويد ملكتها الأرملة.

وقدر لأوديب أن يحل اللغز، فاستحق العرش وتزوج من جوكاست دون أن يدري أنها أمه.. وبذلك نفذ القضاء الذي انتهى آخر الأمر نهاية مفجعة.

فالقصتان تشتركان في هدف واحد هو القدر النافذ، وتشتركان كذلك في كثير من الوقائع اشتراكاً عجيباً.

فلقد كان كل من ملك مصر وملك طيبة يشتاقان للولد فأنذرتهما الآلهة بأن هذا الولد الذي يتمنيانه لن يعمر بخير وأن المصائب التي سوف يتعرض لها ستجعله يتمنى لو لم يولد؛ ويخشى الملكان النبوءة، فأما الملك المصري فقد ابتنى لولده قصراً نائياً في الصحراء ليعيش فيه، وأما الملك

الإغريقي فقد اختار لابنه أيضاً مكاناً نائياً ليموت فيه ولكنه عاش وتعود القصتان فتلتقيان في أن كلا من الولدين غادر وطنه وواجه مشكلة استعصى على غيره حلها ونجح هو في ذلك، فأما المشكلة المصرية فهي الصعود إلى نافذة عالية لفتاة جميلة وأما المشكلة الإغريقية فهي لغز طرحته الاسفنكس التي تقيم في ماكن مرتفع كذلك.

وتلتقي القصتان مرة أخرى في أن جائزة كلك من الأميرين الفائزين كانت الزواج، هذا فضلاً عن أن الخطر الذي تعرض له أوديب ونجا منه وهو الأسفنكس تعرض لمثله الأمير فنجا منه – وهو التمساح – مع فارق البيئة والعقيدة في البلدين، ثم تنتهي القصتان بالقضاء الذي قدر عليهما من قبل.

وبعد فهل رأينا كيف عبر الأدب المصري والقصص المصري القرون والحدود ليكون إلهاماً بل قبساً لمن حولنا من الشعوب بغير خلاف كبير إلا ما يحدثه اختلاف البيئة والعقيدة من بلد إلى بلد ومن زمان إلى زمان؟

قصة ون أمون

قصة هي أكبر الظن حديث لرحالة يروي ما قد وقع له من الأحداث والخطوب، ولكنها مع ذلك قد لقيت من عناية الكاتب فأضاف إليها من أساليب القصة وعناصرها ما خرج بها عن أن تكون تقريراً يرويه رحالة إلى سادته الذين كلفوه بالرحلة.

كانت مصر دائماً في حاجة إلى أخشاب الأرز من لبنان، ولم تكن أيام عزها وقوتها لتجد مشقة في الحصول عليه، إذ كان أمير ببلوص على

استعداد دائم لإمدادها بما تريد على أن تؤدي ثمن ما تشتري. ولكن مصر على عهد رمسيس الثاني عشر عام ١١٠٠ ق. م. لم تعد تلك القوة التي يسرع إليها الملوك والأمراء يبتغون إليها الوسيلة ويحرصون على مرضاتها، فقد ضعف فيها رمسيس ضعفاً لم يجعل له من الملك إلا اسمه، وانحسر سلطانه عن عاصمته طيبة ذاتها، فكان صاحب النفوذ الأعلى فيها كاهن أمون الأكبر حريحور، على حين آلت تانيس أقوى مدن الشمال إلى أمير يقال له نسوبانبدد (سمندس) وزوجته تنتامون؛ وتقسمت سائر أقاليم مصريين حكام صغار.

وكانت السفينة المقدسة – "أو سرحات" – التي كان الإله أمون في طيبة يتخذها في أعياده قد بليت وأصبحت لتجديدها في حاجة إلى أرز لبنان، غير أن طيبة يومئذ قد كانت في حالة سيئة من الإفلاس المالي والأدبي جميعاً، فلم يكن جميعاً لديها من المال ولا النفوذ ما تحصل بهما على ما تريد من الأخشاب لبناء السفينة، لذلك فقد جمع المال تبرعاً من حكام الأقاليم في مصر، كما توسلوا بالإله أمون فأرسلوا تمثال "امون الطريق طريق" إلى ببلوص لعله يعينهم على ما يبتغون، ومعه موظف من المعبد هو "أمون" ومع ذلك فقد بلغ الفقر أن ترك يتكفف المحسنين للقيام برحلته، وحمل بالرسائل إلى نسوبانبدد وتنتامون لكي عيناه على مواصلة الرحلة إلى ببلوص.

على أن هذه الوثيقة إنما تقدم لنا صورة لمصر ولشرق البحر المتوسط في القرن الحادي عشر من قبل مولد المسيح، وما كان بينهما من العلاقات

والمعاملات التجارية كأنها بعض فصول الأوديسية، وذلك في الأسلوب الذي عرف في الدولة الحديثة من حيث السهولة والبساطة.

في العام الخامس، في اليوم السادس عشر من الشهر الثالث من فصل الصيف، في هذا اليوم رحل ونامون كبير ديوان أمون صاحب الكرنك كي يجلب الأخشاب للزروق العظيم المقدس لأمون رع ملك الآلهة الذي على النهر... "أو سرحات أمون".

ويوم وصلت تانيس مقر نسوبانبدد وتنتامون سلمتهما رسائل أمون رع ملك الآلهة، فلما قرئت عليهما قالا سنفعل ما يقول أمون رع ملك الآلهة، فمكثت حتى كان الشهر الرابع من الصيف في تانيس، ثم أرسلني تسوبانبدد مع قائد السفينة منجبيت. وفي أول أيام الشهر الرابع من الصيف نزلت إلى البحر السوري العظيم فوصلت إلى "دور" إحدى مدن الثكر فأمر أميرها بدر فأحضر إلي خمسون رغيفاً ووعاء من نبيذ وفخذ ثور.

ولكن رجلاً من سفينتي هرب وسرق:

من الذهب... أواني تبلغ خمسة دبنات.

ومن الفضة أربع أواني تبلغ عشرين دبنا

ومن الفضة ملء حقيبة يبلغ ١١ دبنا

أي خمسة دبنات من الذهب وواحداً وثلاثين دبنا من الفضة. فنهضت هذا الصباح إلى حيث كان الأمير فقلت له: لقد سرقت في مينائك، ولما كنت أنت أمير البلاد وحاكمها فابحث عن أموالي، والحق أن

الأموال إنما هي لأمون رع ملك الآلهة ورب البلاد وهي لسنوبانبدد، وهي لحريحور سيدي وغيره من علية القوم في مصر.. وهي لثكر بعل أمير ببلوص فقال لي: تغضب أم ترضى، إنني لا أفهم شيئاً مما تقول لي، لو كان اللص من رعايا بلادي ذلك الذي صعد إلى سفينتك فسرق أموالك لرددتها عليك من خزائني حتى يظهر ذلك اللص المذكور، ولكن اللص الذي سرقك رجل لك وينتمي لسفينتك، فانتظر معي أياماً لعلي أبحث عنه.

فكان أن أنفقت تسعة أيام رسوت فيها في الميناء ثم ذهبت إليه فقلت: نظر إنك لم تجد أموالي ولذلك فسوف أرحل بالربان مع من يرحل...

[ورحل ونامون بعد مناقشة حامية وقعت بينه وبين الأمير إلى صور، ثم واصل رحلته إلى ببلوص ليلتقي بأميرها ثكر بعل، وتشاء الأقدار أن يلتقي في طريقه بطائفة من قبائل الثكر وما زال يبحث عن اللص الذي سرق أمواله فيظن نفسه محقاً في تعويض نفسه من أموال هؤلاء غصباً] قال: "فوجدت معهم ثلاثين دبنا من الفضة أخذتها. فلما أصبحت قلت لهم لا شك أنها أموالكم ولكنها باقية معي حتى أجد أموالي.".

[ولم يرحب ثكر بعل أمير ببلوص بزيارة ونامون بعد الذي ارتكب من غصب رجال الثكر أموالهم] فأرسل أمير ببلوص إلي يقول: أخرج من مينائي فأجبت... دع الناس إذا بحروا يأخذوني إلى مصر.. وأنفقت تسعة عشر يوماً في الميناء فظل كل يوم يرسل إلي قائلاً أخرج من مينائي.

ثم كان وهو يؤدي القرابين لآلهته أن جذب الآلهة واحداً من كهانه، وإذا كاهنه يصبح مجذوباً فقال: احضر الإله إلى هنا، احضر الرسول الذي هو عنده، عن أمون هو الذي أمره بالمجيء، وظل المجذوب مجذوباً طوال الليل، وقد كنت عثرت بسفينة تريد مصر، فطفقت أحملها بما كان لي وأنا أنتظر الظلام قائلاً إنه ما أن يخيم علينا حتى أنقل الإله فلا تبصره عين.

غير أن مدير الميناء أقبل علي يقول: أقم حتى يقبل الصبح بأمر الأمير فقلت له: ألست أنت الذي ما برحت تأتيني قائلاً: اخرج من مينائي؟! فما قولك أقم الليلة إلا لتدع السفينة التي وجدتها ترحل ثم تأتيني لتقول مرة أخرى اخرج، فذهب فأخبر الأمير، فإذا بالأمير يرسله إلى قائد السفينة يقول أقم حتى الصباح بأمر الأمير.

فلما أن أسفر الصبح أرسل إلي من أخذني إليه، على حين كان الإله مستقراً في خيمته حيث كان على شاطئ البحر، فوجدته جالساً في ديوانه وقد أولى ظهره للشباك وأمواج البحر السوري العظيم تتلاطم من خلف عنقه. فقلت له: سلام أمون فقال لي: كم يوماً أنفقتها منذ أقبلت من مقر أمون، فقلت خمسة أشهر سوياً حتى الآن فقال لي: كم يوماً أنفقتها منذ أقبلت من مقر أمون، فقلت خمسة أشهر سوياً حتى الآن فقال لي: أنظر أصادق أنت، فأين إذن كتب أمون التي معك وأين رسالة كاهن أمون الأكبر الذي معك؟ فقلت له لقد لسمتها إلى نسوبانبدد وتنثامون، فغضب غضباً شديداً وقال لي: انظر إن الكتاب والرسالة ليسا معك، فأين إذن سفينة الأرز التي أعطاها نسوبانبدد وأين بحارتها السوريون، لا شك أنه لم

يسلمك إلى قائد السفينة هذا لكي يقتلك ويلقيك في البحر، ومن أين إذن أتوا بالإله، وأنت من أين جاءوا بك.

قال لي ذلك فأجبته، ولكنها سفينة مصرية وبحارتها مصريون يبحرون من أجل نسوبانبدد وليس عنده بحارة سوريون، فقال لي: أليس هنا عشرون سفينة في مينائي لها علاقات مع نسوبانبدد، وفي جيدون هذه حيث تذهب، أليست هناك خمسون سفينة لها علاقات مع وركاتل(٩) وتتخذ طريقها إلى داره؟

وظللت صامتاً فترة طويلة فأجاب قائلاً: لأي نوع من الأعمال جئت إلى هنا، فقلت: لقد جئت في طل الخشب للسفينة المقدسة العظمى لأمون ملك الآلهة وكان أبوك يزودنا به وأبو أبيك يزودنا به وسوف تفعل أنت ذلك أيضاً، فلما قلت له ذلك قال: لقد كانوا يفعلون ذلك حقاً، ولو أنك أعطيتني الوسيلة لفعلت، ولقد فعل رعاياي هذه المهمة، غير أن فرعون أرسل (إليهم) ست سفن محملة ببضائع مصر أفرغوها في مخازنهم، أما أنت فماذا أحضرت لي؟

ثم كان أن أمر بإحضار سجل آبائه اليومي وجعله يقرأ أمامي فوجد ألف دبن من الفضة في سجله فقال لي: لو كان حاكم مصر سيد أملاكي وأنا خادمه لما أرسل فضة ولا ذهباً ولقال: نفذ مهمة أمون، ولم يكن هدية(١٠) ذلك الذي أرسل إلى أبي، ولست خادمك ولا خادم الذي

(٩) هي بركة إيل

(١٠) وإنما كان ثمن ما كان يشترى.

أرسلك، على أني إذا دعوت لبنان لفتحت السماء وإذا الأشجار مكدسة عند شاطئ البحر، هيا أعطني الشرع التي أتيت بها لتقود سفنك محملة بالأخشاب، وأعطني الحبال التي جئت بها لربط الأشجار التي تقطع من أجلك..

لقد خلق أمون البلاد جميعاً، خلقها ولكنه خلق قبل كل شيء مصر التي أقبلت منها. وهي التي خرجت منها الفنون لتصل إلى بلادي، ومنها خرجت الحكمة لتصل إلى بلادي. ولكن ما هذه الرحلات السخيفة التي جعلوك تقوم بها؟!

فقلت له: ليست سخيفة تلك الرحلات التي أخرج فيها. فما من سفينة على الماء ليست لأمون. فإن له البحر وله لبنان التي تقول "إنها لي" وهي مزرعة أو سرحات أمون سيدة السفن. والحق أن أمون رع ملك الآلهة قال مخاطباً حريحور سيدي: "أرسلني". وقد جعلني أرحل مع هذا الإله العظيم. ولكن انظر، لقد جعلت هذا الإله العظيم ينفق تسعة وعشرين يوماً منذ حل ميناءك ولم تكن إلا عالماً بأنه هنا. أليس هو كما كان دائماً؟ ومع ذلك فأنت تنهض فتساوم على لبنان أمون سيدها.

أما عن قولك: إن الملوك الأولين إنما أرسلوا الفضة والذهب، فإنهم لو ملكوا الحياة والصحة لما أرسلوا بضاعة. وإنما أرسلوا البضاعة إلى آبائك بدلاً من الحياة والصحة. أما أمون رع ملك الآلهة فإنه رب الحياة والصحة كما كان رب آبائك الذين أنفقوا حياتهم يقدمون القرابين إلى أمون وأنت كذلك خادم أمون. فإذا قلت سأفعل لأمون وصدعت بأوامره فسوف

تيحا وتكون صحيحاً سليماً، وتكون محسناً لبلادك كلها ولرعاياك. ولكن لا تشته لنفسك شيئاً لأمون رع ملك الالهة. فإن الأسد يحب ماله.

مر إذن فليؤت بكاتبك فإني مرسله إلى نسوبانبدد وتنتامون والحكام الذين عينهم أمون على شمال البلاد، وسوف يرسلون إليك كل ما يلزم. وسوف أكتب إليهم بقولي: أرسلوا ذلك حتى أعود إلى الجنوب فأرد إليك ما أنا لك به مدين. ذلك ما قلت. فوضع الكتاب في يد رسوله ثم حمل السفينة وأرسلها إلى مصر.

أما رسوله الذي أرسل إلى مصر فقد عاد إلي في سوريا أول أشهر الشتاء وقد أرسل إلى نسوبانبدد وتنتامون من الذهب أربع أباريق ووعاء ومن الفضة أربع أباريق.

ومن أثواب الكتان الملكي عشر قطع.

ومن كتان الصعيد الجيد عشر حزم

ومن البردي الدقيق خمسة وخمسين

وجلود الثيران خمسمائة

والعدس عشرين كيساً.

والسمك عشرين سلة

كما أحضروا إلي كذلك:

من الكتان الصعيدي الجيد خمس قطع

ومن ثياب الكتان الصعيدي الجيد خمس حزم

ومن العدس كيساً واحداً

والسمك خمس سلال

وفرح الأمير، وعين ثلاثمائة رجل وثلاثمائة ثور وعين مشرفين لقطع الأشجار فقطعوها وتركوها مكدسة حيث هي طوال الشتاء، وفي الشهر الثالث من الصيف سحبت إلى شاطئ البحر وخرج الأمير فوقف عليها وأرسل إلي قائلاً: "أقبل، فلما اقتربت منه وقع ظل مروحته علي، فوقف بنامون أحد خدمه بيننا وقال لقد وقع ظل فرعون سيدك عليك، فغضب عليه وقال: "اتركه أنت وشأنه" ثم اقتربت فاستأنف قائلاً انظر إن الأمر الذي كان آبائي يفعلونه قد فعلته، ولو أنك لم تؤد لي ما كان آباؤك يؤدون، انظر، لقد وصل آخر مالك من أخشاب وهو مكدس (هناك) والآن نفذ ما أريد وتعال اشحنه فقد وهبته لك، ولكن لا تأت لتنظر إلى أهوال البحر، فإذا نظرت إلى أهوال البحر فانظر إلى أهوالي أنا، إنني لم أفعل معك ما فعلنا مع سفراء خعمواس وقد أنفقوا سبعة عشر عاماً في هذه البلاد وماتوا حيث كانوا، ثم قال لخادمه، خذه فاطلعه على قبرهم حيث يرقدون، فقلت له: لا تطلعني عليه، أما عن خعمواس فقد كان الذين أرسلهم إنساً وكان هو كذلك إنسياً.. انظر، لم لا تفرح وتستصنع لك نصباً تقول فيه: أرسل إلي أمون رع ملك الآلهة أمون صاحب الطريق رسولاً مع ون أمون رسولاً إنسياً في طلب الأخشاب للسفينة المقدسة الكبرى لأمون رع ملك الآلهة، فقطعتها وشحنتها وجهزت له سفني وبحارتي

وأرسلتها إلى مصر ليبتهلوا إلى أمون من أجلي بخمسين سنة من العمر فوق ما قدر لي... فإذا ما حدث بعد ذلك أن أتى رسول من أرض مصر ممن يعرف الكتابة وقرأ اسمك على النصب فسوف تتلقى الماء في الغرب كالآلهة التي هنا.

فقال لي: إنه لدرس جليل ذلك الذي قلت.

فقلت له أما عن تلك الأمور الكثيرة التي قلتها لي فإني إذا وصلت موطن كاهن أمون ورأي أعمالك فإن ما عملت ينبغي أن يتلقى شيئاً.

ثم ذهبت إلى شاطئ البحر حيث كانت الأخشاب مكدسة فلحظت في البحر إحدى عشر سفينة آتية وكانت للثكر (الذين قالوا) خذوه أسيراً ولا تجعلوا له سفينة تصل إلى أرض مصر، عندئذ جلست فبكيت.

ثم أتى إلي كاتب الأمير فقال لي: ماذا بك فقلت له: ألا ترى الطيور تهبط إلى مصر للمرة الثانية[(١١)]؟ انظر إليها، إنها تعود إلى الغدران.. فحتى متى أظل هنا مهملاً، فذهب فأخبر الأمير بذلك فأنشأ الأمير يبكي للأنباء التي رويت له واشتد حزنه، فأرسل كاتبه إلي فحمل إلى كيلين من نبيذ كما أنه بعث إلي "تنتنوت وهي مغنية مصرية كانت عنده وقال (لها) عن له ولا تدعي الحزن يستولي على فؤاده وأرسل إلي يقول: كل واشرب ولا تدع فؤادك يستولى عليه الحزن، ولسوف تسمع كل ما أقول غداً، فلما أقبل الغد، دعا حراسه فوقف بينهم وقال للثكر: ماذا يعني مجيئكم هنا؟ فقالوا

---

(١١) الطيور المهاجرة مما يدل على طول ما بقي ونامون في الغربة وقد حل موعد هجرتها إلى مصر للمرة الثانية وهو هناك.

له: لقد أقبلنا وراء السفينة المحطمة(١٢) التي ترسلها إلى مصر، وعليها من بيننا وبينه ثأر يجب أن نسويه فقال لهم، لا أستطيع أخذ رسول أمون أسيراً في بلادي، دعوني أبعده ثم تعقبوه أنتم لتأسروه.

ثم إنه حملني على السفينة وأرسلني... إلى ساحل البحر؛ فكان إن قذفت بي الريح إلى أرض ألسا، فخرج أهل المدينة علي ليقتلوني فاتخذت سبيلي إلى حيث تقيم حاتب أميرة المدينة فوجدتها تخرج من أحد بيوتها وتدخل آخر لها، فحييتها وقلت للناس الذين كانوا إلى جانبها: أليس فيكم من يفهم المصرية فقال واحد منهم: أنا أفهمها فقلت له: قل لسيدتي إني سمعت حتى في بلدي في موطن أمون، أن الباطل يرتكب في كل بلد ولكن الحق قائم في أرض ألسا، ولكن الباطل هنا كذلك يرتكب كل يوم فقالت لي: ما هذا الذي تقول؟! فقلت لها: هبي أن البحر هاج ودفعتني الرياح إلى الأرض التي أنت فيها فهل تسمحين أن يقبض علي وأقتل، وأنا رسول أمون؟ هلمي فانظري إلي، فلسوف أفتقد إلى آخر الزمان(١٣)، أما عن بحارة جبيل هؤلاء الذين يبحثون عنهم(١٤) لقتلهم، فماذا عن أميرها إذا وجد عشرة من بحارتك، ألن يقتلهم كذلك؟

فاستدعت الرجال فأحضروا.. ثم قالت لي نم في سلام...

---

(١٢) دعاء على السفينة بالتحطم ونزول النكبات بها.

(١٣) أي سيطلب بثأري إذا قتلت

(١٤) أي رجال السا.

[وهنا تتمزق البردية ولا نعرف كيف انتهى أمر ونامون وهل نجح في نقل الأخشاب إلى مصر..]

وبعد فهذه وثيقة تبين لنا صورة لمصر وشرق البحر المتوسط في القرن الحادي عشر من قبل مولد المسيح، تحدثنا كيف كان ما بينها من العلاقات السياسية والتجارية جميعاً، وتسرد لنا بعض ما ازدهر في مصر يومئذ من أنواع الصناعات والمحاصيل، وما كانت تصدره من البضائع والعروض. كانت تصدر ما "تصنعه" من الذهب والفضة وأثواب الكتان والسمك المجفف "المحفوظ" وذلك فضلاً عن الجلود وورق البردي الذي كثر تصديره إلى بلبوس (جبيل) ومنها إلى سائر أنحاء العالم القديم، فإذا هي مركز توزيعه حتى اشتق اسم الكتاب في اليونانية من اسمها ثم اسم الكتاب المقدس في سائر اللغات الأوروبية الحديثة. ولقد بلغ حجم التجارة أن كانت تحملها بين مصر وسائر المدن في شرق البحر المتوسط أكثر من سبعين سفينة كما ذكرت القصة.

فإذا تحولنا إلى سياق القصة، فقد أعجبنا منها من غير شك ما دار فيها من الحوار وما ثار فيه مع ون أمون من المساجلات والمفاوضات، مع أمير صور أولاً في تلك المسألة القانونية عن سلطة الحاكم على لص أجنبي في سفينة أجنبية، ومسئوليته عن رعاياه إذا سرقوا من سفينة أجنبية أن يعوضها عما سرق منها، ثم ما كان من تبادل الحجج مع أمير ببلوص أثناء المفاوضات على الأخشاب ثم بين أمير ببلوص والثكر عن حصانة ون أمون ما بقي في بلاده، فإذا غادره فلهم أن يتعقبوه. ثم حديث ون أمون

مع أميرة ألسا آخر الأمر وهو يطلب لنفسه السلام في غير ضعف وينصح لها أن تهادن أمير ببلوص (جبيل).

على أن القصة في جملتها، إنما كانت تبشيراً بدين أمون والدعوة إليه، ففي سبيله اجتمعت كلمة ملوك مصر وأمرائها – على تفرقهم – من أجل هدف واحد، وتكبدت البلاد من النفقة والأموال على ما كانت تشكو من الإعسار.

وتريد القصة تبيان ما كان لأمون من المعجزات والكرامات فصورت انجذاب أحد شباب الأمير وتدلهه فجعل يهرف طوال الليل يطلب الترحيب بأمون ورسوله ون أمون، حتى عدل الأمير عن طرده وأرسل يستبقيه ويدعوه إليه ويفاوضه، ثم يتصل بينهما الحديث فيعترف بفضل أمون الذي خلق البلاد جميعاً.

وكذلك تبرز القصة ما كان لمصر من فضل اعترف به الأمير، فلها من العراقة السبق ومن الحضارة الخلق والابتكار، وتعليم الجيران من البلدان والأقطار، إذ خلقها الإله قبل أن يخلق سائر البلاد، ومنها خرجت الفنون والصناعات لتصل إلى بلاد الأمير.

صورت القصة هذا كله وهي تروي أسفار ون أمون وما لقى أثناء ذلك من المحن والخطوب، وتعرضه للأسر والقتل وبعده عن وطنه وشوقه له وحنينه إليه حتى تهاوى فجلس يبكي، وذلك في لمسات فنية بارعة وهو ينظر إلى الطير تمر به مقبلة من مصر ثم عائدة إليها تحمل إليه الحنين وتشعره بمر الأيام وكر العشى كأنه بذلك يردد قول الشاعر:

أسرب القطا هل من يعير جناحه   لعلي إلى من قد هويت أطير

أو كأننا بهذا كله حيال فصل من فصول الأوديسية وأسفار يوليسيس وهيامه في البر والبحر.



(قراطيس البردي) حوت من آداب المصريين وعقائدهم ما يجل عن التقدير. وهذه بردية حفظت لنا فصلاً من كتاب الموتى وتصوير الحساب في الآخرة

الفهرس